الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق



رجال صدقوا ما عاهدوا وطنهم عليه:

أساتذة أعلام من جامعة دمشق

أ. د. عبد النبي اصطيف



دمشق، ٢٠٢٤م


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

رجال صدقوا ما عاهدوا وطنهم عليه:

أساتذة أعلام من جامعة دمشق

أ. د. عبد النبي اصطيف

منشورات جامعة دمشق

٢٠٢٤م


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



مقدمات


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

(١)

ينشد الشاعر العربي أحمد عبد المعطي حجازي متحسِّراً، في واحدة من درر قصائده تحمل عنوان: "**مقتل صبي**":

"مات في المدينةْ

وما بكت عليه عينْ

الموت في الميدان طنْ

قالوا ابن منْ

فليس يعرف اسمه هنا سواه!

يا ولداه!"

ويضيف:

"فالناس في المدائن الكبرى عددْ

جاء ولدْ

مات ولدْ".

نعم، مجتمعنا الحديث (بالنوايا فقط) حوّلنا إلى عدد، ويكاد القلم يمضي ليكتب:

"فالناس في الجامعات الكبرى عددْ
وليس بينهم مخلِّدٌ
وليس بينهم من تمضي به حياتُه إلى الأبد".

إنه الشرط الإنساني القاسي، الذي يجهد فيه الكائن البشري ليغتنم نعمة الحياة، قبل أن يقرع بابه ملك الموت دون سابق إنذار، ودون موعد مسبق، ودون استشارة لقريب أو بعيد. يأتي ويغادر ويترك الناس حيرى، يضربون كفاً بكف، إذ يتبينون عجزهم أمام الفقد الذي لا يعوِّضه شيء. وربما كان جميل الذكرى هو كل ما يظفرون به، جائزةَ ترضية في هذه الدنيا التي لا ترحم في لحظة العدل المطلق الوحيدة فيها التي يستوي فيها الجميع.

نعم، لم يبق، ولن يبقى، غير جميل الذكرى، ومن يفقد من يحب لا يملك غيرها، خاصة وأنها تُجدِّد الإحساس المُمِضّ بالفقد، وما يولِّده من حزن على ما فات صاحبه من جميل الصحبة، ودفء الجوار، وجلال، بل سمو الصداقة، ولذة الشعور الجمعي بزمالة العمل، والاعتزاز بسمو النسب المعرفي

في علاقات التلمذة، والانتشاء برفعة الحب الأسري لشق النفس/شريك الحياة، والسعادة بحنان الأبوة والأمومة الذي يكنُّه الآباء والأمهات للأولاد.

والحقيقة أن هذا الحزن قد يتحول في بعض الأحيان إلى حزن مستدام عندما يكون الفقيد لصيقاً بروح المرء، وليس عليه أن تربطه بالمرء صلة قرابة، أو صداقة، أو زمالة، أو تلمذة، أو رفقة سفر، أو طفولة، فالأرواح جنود مجندة لا تعرف هذه التصنيفات للصلات الإنسانية، ولا تحسن التمييز بينهما.

وعندما يكون الفقيد أستاذاً جامعياً، فإن الإحساس بغيابه يكون مركّباً، ينطوي على باقة جميلة من المشاعر نحو:

- الأستاذ الجليل الذي أسهم في تربية تلامذته، وفي تكوينهم العلمي والمعرفي، وفي رعايتهم ليصبحوا في مستقبلهم أفضل منه في كل شيء، فهذا لبّ طموحه في نفسه وفيهم، وهو مقياس نجاحه العلمي، ومؤشر أدائه لرسالته في الحياة؛

- ونحو الصديق الصدوق، والناصح الأمين، الذي قد تجمعه بالفقيد قرابة، أو طفولة، أو تنشئة، أو زمالة دراسة، وربما زمالة عمل بعدها، فهو يكون عندها المستشار المختار الذي يقصده المرء في كل صغيرة وكبيرة في الحياة.

- ونحو الكاتب، أو المؤلف، الذي تتداخل أفكاره وآراؤه المبثوثة فيما يخط في سطور وفيما يلقي من محاضرات، وفيما يدلي به من أحاديث، بأفكار المرء، وتنسرب في نفسه وروحه وعقله، وتغدو جزءاً منها، تخالطها مخالطة خلايا الجسد الواحد.

وعندما يشارك المرء في مجلس عزاء، أو حفل تأبين، أو ذكرى سنوية، وما شابهها من تقاليد اجتماعية-دينية فإن حزنه يخالطه نوع من الرضى، مصدره الإحساس بأن هذا المجلس أو الحفل إنما هو تعبير عن الاهتمام بالفقيد على الرغم من رحيله، وأنه ينطوي على ضرب من حضوره في النفس بعد غياب جسده عن عالمنا.

وربما تتداعى إلى ذهنه أفكار أخرى منها:

- رجاؤه أن يكون هذا الاهتمام عاماً يشمل جميع مبدعي الوطن في مختلف مجالات الحياة الثقافية والفكرية والعلمية والفنية، دون النظر إلى انتماءاتهم الدينية أو العرقية أو السياسية، أو إلى جنسهم، فالإنسان واحد، وإبداعه في أي مجال واحد أيضاً؛
- ودعوته أن يكون معيار هذا الاهتمام ما قدمه هؤلاء المبدعون من خير لوطنهم وأهلهم؛

- وأن ينصرف إلى الأحياء منهم، مثلما ينصرف إلى من قضوا وهم يؤدون رسالتهم في الحياة؛

- وأن يعنى بشكل خاص بأولئك الذين فضلوا البقاء في الوطن في الأوقات الحرجة وتحملوا من ثَمّ عقابيل بقائهم فيه، بكل ما ينطوي عليه من مشكلات وظروف وأوضاع، ويكفي أنهم لم يغادروا وطنهم أو يُبعِدوا أولادهم بشكل خاص تحت أية ذريعة.

وربما كان على المرء أن يذكّر بأن المبدعين، ولا سيما أساتذة الجامعات **ليسوا مجرد أرقام، بل هم قدوة للأجيال التي نذروا أنفسهم لتنشئتها، ومن المهم أن تبقى ذكراهم حية بشتى السبل، حتى لا يفتقر طلابهم، والأجيال الشابة عامة، القدوةَ الحسنةَ في حياتهم.**

ولعله عندها يقترح أن يؤسَّس صندوق وطني لدعم مشروعات الإبداع في القطر العربي السوري، يقدم:

- منحاً تموِّلها مؤسسات المجتمع المدني الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من مثل: الشركات الكبرى؛ والمؤسسات الإنتاجية العامة؛ والمؤسسات الخدمية العامة؛ والجمعيات العلمية والثقافية؛ والنقابات المهنية

اللصيقة بهذا الإبداع من مثل نقابات الأطباء والصيادلة والمهندسين والمحامين والفنانين والمعلمين؛

- جوائز مجزية تفي بحق المبدعين على مجتمعهم وأمتهم؛
- تسهيلات عملية تعزز عملية الإبداع وتشجع عليه من مثل:

١. فترات تفرّغ مدفوعة الأجر لبعض المبدعين العاملين في الدولة،

٢. رحلات استطلاعية/استكشافية للكُتّاب والباحثين إلى مختلف بقاع الوطن، والوطن العربي، والعالم، مما يتصل بالموروث العلمي والفكري والأدبي والفني للأمة العربية،

٣. إجازات مُلهِمة للكتابة تقدمها المنتجعات السياحية بوصفها أمارات شكر وتقدير لمبدعي مجتمعها الذي يبقيها مفتوحة بما يدفعه لها.

والمهم التعامل مع الإبداع تعاملاً مختلفاً جذرياً عما هو سائد في مجتمعنا، والنظر إليه على أنه **رأسمال فكري Intellectual Capital للمجتمعات التي يجب عليها تثميره، واستثماره، وتوظيف ريعه في عملية التنمية الشاملة للوطن، وتمكنه من ثَمَّ من الإسهام في ازدهار الأمة وتقدمها.**

* * *

تضم البحوث، والمقالات، والمحاضرات، وكلمات التأبين، التي يشتمل عليها هذا الكتاب، ضوءاً من جميل الذكرى المتصلة بموضوعاتها، وهم "رجال صدقوا ما عاهدوا الوطن عليه"، وجلّهم قضوا مغادرين عالَمنا بعد فيض عطاء، وبعضهم لا يزال يرفد حياتنا بما يقيم أودها من سامي القيم، وجليل الفضائل، والقدوات الأمثولة. وهذا الضوء مصدره ما قدموه من جانب، وما خلفوه من طيب الذكرى من جانب آخر، خطَّه قلم صاحب هذه السطور في مناسبات مختلفة، احتفاء برجال كانوا الأسوة الحسنة في حياته: **أساتذة تتلمذ عليهم، وزملاء أغنوا نشاطاته البحثية والعلمية بما قدموه من عون وتشجيع، وأصدقاء كانوا بمنزلة شق النفس، تتلمذ عليهم، بالحال والمقال**، وأغنوا عليه حياته إلهاماً وعملاً أبقياه على قيد الحياة الحقيقية، المرهونة بالبذل والعطاء لمن نحب وطناً وأهلاً.

جامعيو دمشق الذين صدقوا ما عاهدوا الوطن عليه

- قسطنطين زريق
- عبد الهادي هاشم
- إحسان عباس
- شكري فيصل
- محمد إحسان النص
- عفيف بهنسي
- ليلى الصباغ
- عبد الكريم الأشتر
- جودة الركابي
- عمر موسى باشا
- حسام الدين الخطيب
- فهد عكام
- محمود موعد

- جعفر دك الباب
- ممدوح خسارة
- مازن المبارك
- محمود السيد
- محمود الربداوي

(٢)

تأملات في فسحة التلمذة

فسحة التلمذة، لو يدري مريدو المعرفة ما تنطوي عليه من مشاعر يصعب أسرها بالكلم، فسحة لصيقة بنفسي وحياتي، التي توزعت بين شيوخي الذين كنت، وما زلت، أجلس بين أيديهم لآخذ عنهم، وبين شيوخي الذين تطمئن مؤلفاتهم بين يدي تحدثني بما أودعوه فيها للآخرين من عصارة فكرهم حباً وكرامة. وكثيراً ما أجدني أنطلق منها فيما أكتب أو أتحدث-القلم قلمي وقد تشبع بمدادهم، واللسان لساني وقد أفصح طوعاً ومحبة عما وظفوه له من خير.

وإذ أنصرف اليوم إلى تأمل هذه الفسحة فإني أرجو أن أتبين فيها ما يغني تفكيرنا عن فضل المعلم/الشيخ في حياتنا ولا سيما أننا قد دخلنا منذ أكثر من عقدين في الألفية الثالثة التي سيكون فيها التحدي المعرفي أكبر التحديات

التي سوف تواجهنا، ومن حق منتجي المعرفة علينا أن نوسّع لهم في نفوسنا فسحة تليق بفضلهم.

التلمذة نمطان: تلمذة الحضور، وتلمذة السطور. وعندما يكون الشيخ مقلاً في سطوره يكون جلّ تلامذته من تلامذة الحضور، ويكون اهتمامه بهم اهتماماً مضاعفاً، وربما يعود ذلك إلى أنه يرى أن دوره الذي ينبغي أن يؤديه في حياتهم هو دور المحفّز لنشاطهم، ويود لهذا النشاط أن يمتد ليبلغ ما أراد أن يبلغه هو بنفسه، ولذلك تراه يسعد أيما سعادة بما يحققونه من نجاح يشركهم به في كل وجه من وجوهه، خلا التوقيع الذي يتركه لهم قانعاً بحصيلة العمل وما يعود به من خير على المجتمع أو الأمة أو الإنسانية.

وعندما يكون الشيخ أكثر أُلفة للقرطاس والقلم وأكثر رغبة في اصطحابهما يكون جلّ تلامذته من تلامذة السطور الذين لا يدري عنهم الكثير إلا ما يولّده في نفسه من صور لهم يستحضرها ليحدثها ويخاطبها ويرجو لها ويأمل أن تعي ما أودعه في قراطيسه من **عصارة أيامه**-إذا ما استخدمنا ترجمة حسام الخطيب لعنوان السيرة الذاتية الخاصة بسومرست موم.

ولننظر على أي حال إلى هذين النمطين علّنا نعي ما تنطوي عليه فسحة التلمذة من معان ودلالات.

فأما تلمذة الحضور، فإن عمليتي الإرسال والاستقبال فيها، تجريان في المكان والزمان نفسيهما. وذلك على خلاف تلمذة السطور التي تتم فيها عمليتا الإرسال والاستقبال عادة في زمان ومكان مختلفين.

وبينما تكون قناة توصيل الرسالة هي الخطاب الإنساني منطوقاً، يرسله الشيخ ليتلقاه التلميذ في تلمذة الحضور في المكان والزمان ذاتيهما، تكون قناة التوصيل، في تلمذة السطور، الخطاب الإنساني، مدوناً، مكتوباً.

وأما المرسل/الشيخ فإنه يكون في تلمذة الحضور حاضراً حضوراً شاملاً في أثناء عمليتي الإرسال والاستقبال، الحضور المادي، والحضور الذهني، والحضور النفسي معاً، فهو مرئي ومسموع، وهو يستعين على حضوره بلهجته المميزة التي تكاد تحمل هويته؛ وبإلقائه الخاص الذي يستهدف منه أسر متلقي خطابه، التلميذ؛ وبحركات رأسه، وعينيه، ويديه، وربما جسمه كله، وما تبثه من لغات إشارية خاصة بها، وربما يستعين فوق هذا وذاك وتلك بمؤثرات خارجية أخرى تيسر لمتلقيه استيعاب ما يرسله من رسالة.

وأما تلمذة السطور، فالمرسل/الشيخ غائب، يحاول المتلقي/التلميذ أن يستحضره إلى ساحة وعيه؛ مستعيناً بالذكرى، إن كان قد سبق له أن رآه بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة (كالصورة مثلاً، أو من خلال وسائل الإعلام

المرئية)؛ أو مستعيناً بالخيال إن لم تتح له الظروف مثل هذه الرؤية. وقد تستغرقه الرسالة فينسى مرسلها وينصرف إليها لا يغنيه من أمر صاحبها شيء. أليست الكتابة، فيما يزعم رولان بارت، موتاً للمؤلف، وولادة للقارئ؟

والحقيقة أن المتلقي/التلميذ، في تلمذة الحضور، لا يُضيَّق عليه فَيُحرم من إعمال خياله بشأن المرسل/الشيخ، وما يمكن أن يكون عليه من صفات خلقية ونفسية فحسب، بل إنه يخضع كذلك لقيود لا حدود لها، هي قيود آداب التلمذة حضوراً، التي كثيراً ما تغري مقاعد الدرس بخرقها. ولعمري كم هي مغرية تلك المقاعد، وكم هم ضعاف أولاء التلاميذ في مقاومة إغرائها.

وبالمقابل فإن هذا المتلقي/التلميذ في تلمذة السطور يكاد يكون متحرراً تماماً من هذه القيود، إذ يمكنه أن يتلقى ما يشاء متى أراد ذلك، وأينما، وكيفما أراده، يتلقاه متصلاً ومنفصلاً؛ وقوفاً أو جلوساً أو اتكاءً أو استلقاءً؛ ولربما يستعين عليه بضروب من الطعام والشراب لا تتيسر له في تلمذة الحضور.

ومع ذلك فإن تلميذ الحضور، وعلى الرغم من حرمانه من جميع هذه التسهيلات، تتاح له فرصة السؤال والنقاش والحوار والاستيضاح، وخاصة إذا كان المرسل/الشيخ من الذين يحسنون الإصغاء كما يحسنون الكلام، ويؤمنون بأن جوهر العملية التعليمية التفاعل. وبالطبع فإن هذه الفرصة لا تتاح لتلميذ

السطور إلا إذا كان الاتصال مع كاتب السطور ممكناً على نحو من الأنحاء. وهذا لا يتيسر إلا لقلة، وفي ظروف محدودة جداً.

وتلميذ السطور أيضاً تفوته حيوية الاتصال الإنساني وآنيته، وبالتالي سياقه. وقد يسيء فهم هذه السطور التي بين يديه إذ يفوته كل ذلك، إلا أنه من جهة أخرى يستطيع أن يمارس دوره الذي ينشغل به النقد المعاصر اليوم، ويختصم فيه دارسوه فيما بينهم. وسبب ذلك أن تلمذة السطور تكون على نص مكتوب لا يعلم إلا الله مدى تحولاته بين شكله الأول على الورقة الأولى التي خطها المؤلف/الشيخ في البداية، وما فتيء بعد ذلك يراجعها وينقحها ويصححها، ويحذف منها ويضيف إليها، وغير ذلك من العمليات التي يحرم منها شيخ تلمذة الحضور، وبين شكله الأخير أو النهائي، ولذا فإنك تراه يجهد نفسه مركّزاً ذهنه ليكون ما يرسله واضحاً، دقيقاً، متسقاً، يأخذ بعضه برقاب بعض، حتى يتلقاه من يتلقاه على النحو الذي أراده، ولا يسيء فهمه. وبالطبع فإن التلميذ/المتلقي بدوره مضطر إلى إجهاد نفسه ليركز ذهنه على ما يتلقاه، ويشفق على شيخه/المرسل من أن يظن بتلميذه أنه لا يحتفي به حق الحفاوة، ويشفق على نفسه من أن لا تستوعب جلّ ما فيه، بله كله، وخاصة عندما يعلم أن ثمة يوماً عسيراً سيأتي، يقف فيه موقف المسؤول سطوراً أو حضوراً بين يدي هذا الذي يرسل إنشاءه الآن.

ومن هنا كان للبعد الشخصي دور كبير في تلمذة الحضور، يكاد يتلاشى في تلمذة السطور. ولست أريد أن أتحدث عن هذا البعد لأن المقام لا يتسع لما يمكن أن تفيض به النفس من إكبار ومحبة وتقدير لكل من أسهم في صنع صاحب هذه السطور، ولكني ربما أستعين بأبيات لأبي تمام أرجو أن تشي ببعض ما تركه أساتذتي في نفسي ولا سيما أن كلاً منهم قد كان مثل صاحب شاعرنا أبي تمام- أبي علي الحسن بن وهب الذي قال فيه:

أبو علي أخلاقه زَهَر	غِبَّ سماء وروحه قدس
أبيض قدت قد الشراك شرا	ك السِّبتِ بيني وبينه النفس
يشتاقه من كماله غده	ويكثر الوجد نحوه الأمس
ردي لطرفي عن وجهه زمن	وساعتي من فراقه حَرس
أيامنا في ظلاله أبداً	فصل ربيع ودهرنا عرس

(٣)

من يذكر هؤلاء الرجال؟

وما الذي اجترحته أيديهم بحق أمتهم، حتى يطويهم النسيان؟

حضرت مؤخراً حفل تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص الذي أقامه **مجمع اللغة العربية** بدمشق في قاعة المحاضرات في الخامس عشر من شهر أيار الجاري، وشاركتُ فيه بكلمة باسم تلامذة الفقيد، وهي أقل الواجب من جانب تلميذ أفاد الكثير من أستاذ خدم الأمة بكل ما تيسّر له من قدرات وإمكانات وقدّم لمكتبتها مراجع في غاية الأهمية عن الأدب العربي في العصر الأموي (***الخطابة العربية في العصر الذهبي***، و ***العصبية القبلية و أثرها في الشعر الأموي***، و ***الشعر السياسي في العصر الأموي***، ***وشعر الغزل في العصر الأموي***)، فضلاً عن مراجع مؤسِّسة في دراسة القبائل العربية وأنسابها في مرحلة

تشكل الوعي السياسي للأمة العربية في فترة الخلافة الأموية (***القبائل العربية وأنسابها وأعلامها***، في جزأين، ***وكتب الأنساب العربية***).

وبصرف النظر عن رأي المرء في تنظيم هذا الحفل، وعن ملاحظات الحضور على عدد من المظاهر غير اللائقة التي شابت فقراته، والتي ربما تعود إلى قلة الاهتمام بالفقيد **بسبب بعده عن المناصب الرسمية التي يجذب بريقها الحضور ويرفع من درجة الاهتمام بأصحابها**، فإن المرء ربما يراوده سؤال في غاية البساطة، وغاية الأهمية، في آن معاً، وهو: **ما الذي فعلناه بتراث أعضاء مجمع اللغة العربية، مجمع الخالدين، وما الذي قمنا به لنخلّد صنيعهم في الحفاظ على تراث الأمة، والقيام على خدمته؟** وهل ما زلنا نذكر أعضاءه الذين مضوا إلى جوار ربهم راضين مرضيين؟

نعم، من يذكر اليوم محمد كرد علي، وخليل مردم، وشفيق جبري، وحسني سبح، وجميل صليبا، وسامي الدهان، وشكري فيصل، وعبد الوهاب حومد، وعادل العوا، وعبد الكريم اليافي، وأمجد طرابلسي، وبديع الكسم، وجورج صدقني، وغيرهم؟

وماذا فعل بلدنا ومؤسساته الجامعية والعلمية والثقافية بتراث هؤلاء الأعلام؟

هل تم جمعه ونشره؟

هل أُعيد نشر ما نفد منه؟

هل أعدنا نقاشه وتقويمه؟

هل حاولنا تطوير ما ينطوي عليه من آفاق واعدة؟

هل سعينا إلى إدخاله في متن الثقافة العربية في القطر العربي السوري من خلال إدخاله في الكتب الجامعية والمدرسية؟

قد يشير البعض إلى بعض الجهود المتفرقة في مجال تكريم بعض أعضاء **مجمع اللغة العربية** بالاحتفاء بنتاجهم، وهو ما فعله على سبيل المثال الأستاذ محمود الأرناؤوط، الذي جمع مقالات الأستاذ الدكتور شاكر الفحام في أربعة مجلدات نشرتها **الهيئة العامة السورية للكتاب** عام ٢٠٠٧م، غير أن هذا التراث العلمي للمغفور له لم يظفر حتى بمراجعة جادة لهذه المجلدات، وهو أمر يبعث على الاستغراب، ولكن يبدو أن فيروس القناعة بأقل الجهود بات ينتشر هذه الأيام في سوريا انتشار النار في الهشيم.

وقد يزعم بعضهم أن هذا الاهتمام بالماضي عديم الجدوى، وأن علينا أن نتطلع إلى المستقبل، وأن نوجّه أبناءنا نحوه من أجل صنعه بهمة الشباب، وعزيمة الرجال، بغرض تحقيق أهداف الأمة في حياة أفضل ومكانة أرفع بين

الأمم لننتمي بحق إلى عصرنا الراهن عصر العولمة، وأننا لسنا بحاجة اليوم إلى شيوخ الزمن الغابر، الذي نود أن نخرج منه، إلى عالم الألف الثالث.

وزعم كهذا بحاجة إلى بدوره إلى مساءلة شديدة، ولكن تكفي الإشارة إلى أننا بحاجة أيضاً إلى أن نتطلع، في مسيرتنا نحو بناء مستقبل أفضل لأمتنا، **إلى رجالات الكفاح والنضال في مختلف ميادين الحياة، وأن نقتدي بهم، ونستلهم منهم العزم والعزيمة والرؤى، فضلاً عن الحكمة التي باتت تعوزنا في تدبّرنا لمختلف المشاكل الراهنة التي نعاني منها.**

وعلى أية حال فإن ثمة طرقاً عديدة للتأسيس لحوار مع الإنتاج الفكري لأعلام من مثل أعضاء **مجمع اللغة العربية**، أو **أساتذة الجامعات السورية**، أو **أعلام الحياة الأدبية والثقافية والفكرية** في القطر، ربما كان من أبرزها:

١. **الكتاب التكريمي Festschrift** الذي يسهم فيه أصدقاء المكرَّم من أساتذة الجامعات، وتلامذته، وأقرانه بغرض التنبيه على مكانته، وأهمية إنتاجه، وتوضيح إسهامه في حقل تخصصه المعرفي (وهو ما تفعله دار الفكر بدمشق التي أصدرت عدداً من هذه الكتب التي كرّمت بها وهبة الزحيلي، ومازن مبارك، ومحمد عزيز شكري، وغيرهم)؛

٢. **تسمية كرسي باسمه في قسمه العلمي الذي عمل فيه خلال سنوات عمله في الجامعة** يُسند إلى من ينهض برسالة المكرّم التي نذر نفسه لها.

٣. **تنظيم محاضرة تذكارية باسمه تلقى سنوياً** من جانب أستاذ بارز في حقول اهتماماته.

٤. **تأسيس منحة باسمه تمنح لطالب أو أكثر** يتابع دراسته في جوانب من اهتماماته البحثية.

٥. **تخصيص جائزة كتاب باسمه** تمنح لمُؤَلَّف يتناول واحداً من جوانب اهتماماته الفكرية والبحثية.

٦. **إقامة ندوات ومؤتمرات** تناقش إسهامه العلمي وأعماله البحثية.

٧. **إصدار أعداد خاصة من المجلات المرموقة المعنية باهتمامات تتناول موادها حياته وأعماله بالدراسة والتحليل والمناقشة وتتحاور مع آرائه وأفكاره وتبني عليها، دافعة أبحاثه ومحاجاته إلى مدى أوسع وأفق أبعد.**

٨. **تسمية بناء، أو مكتبة، أو قاعة، أو مدرج في الجامعة باسمه، تُذَكِّر بالرجل الغائب، وبحوثه الحاضرة.**

شكر وتقدير

صاحب هذه السطور مدين بشكر خاص للأستاذ الدكتور محمد أسامة الجبان، رئيس جامعة **دمشق**، على موافقته على جعل هذا الكتاب جزءاً من احتفالية الجامعة بالذكرى المئوية لتأسيسها، وعلى نشره الكترونياً تقديراً لإسهام جامعيّيها في مسعاهم إلى نشر العلم والمعرفة للأجيال الناشئة في سورية والوطن العربي. كما أنه مدين للأستاذة الدكتورة ميساء السيوفي لمتابعتها الحثيثة لإخراجه من جانب مديرية المطبوعات الجامعية.

غير أن الفضل الأول في تأليفه ونشره إنما يعود إلى توفيق الله عز وجل، "الذي علمني ما لم أكن أعلم"، وإلى ما فطرني عليه من حب للعلم، وتقدير لرجاله، ووفاء لجميل ما قدموه لي، وما أعانني عليه في متابعة جهود هذه المجموعة المتميزة من جامعيّي دمشق والتذكير بها، لتكون هذه الجهود، فيما أرجو، أمثولة يتطلع إليها أساتذة الجامعة وطلابها، ويكون أصحابها قدوة، بل منارة لهم، يهتدون بها في مسعاهم النبيل لخدمة بلدهم وأهلهم.

والله من وراء القصد

دمشقُ فيحاءُ الشام، ربيع ٢٠٢٤م





قسطنطين زريق

(١٩٠٩–٢٠٠٠م)


Damascus University

قسطنطين زريق داعية العروبة[1]

قبل البدء

تيسرت لي، منذ انتسبت إلى جامعة دمشق قبل أكثر من ثلاثة عقود، معرفة عدد من رؤسائها. وقد تفاوتت هذه المعرفة بتفاوت طبيعة العلاقة التي ربطتني بهم بحكم موقعي في الجامعة، أو ربطتني بهم خارجها كما كان الشأن في صلتي بالأستاذ الدكتور شاكر الفحام، رئيس **مجمع اللغة العربية** بدمشق، وبالأستاذ الدكتور عبد الرزاق قدّورة، عضو المجمع المتميز. ولكثرة ما سمعت عن الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق من أساتذتي وزملائي الذين عاصروه، كنت دائماً أتمنى لقاءه والحديث معه، وعندما بدأت باستكشاف بعض إنتاجه المبكر في مجلة ***الطليعة*** الدمشقية (١٩٣٥-١٩٣٩)، وفي

[1] نص الكلمة التي ألقاها صاحب هذه السطور باسم **جامعة دمشق** في مفتتح الأسبوع الثقافي الرابع لقسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة، والذي انعقد بين ١٦ و٢٠ من شهر آذار من عام ١٩٩٩، في الجلسة المخصصة لتكريم الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق وثلة من المؤرخين العرب الآخرين.

منشورات **الجامعة الأمريكية في بيروت**، شعرت بأن علي أن أخصص وقتاً كافياً لدراسة مجموع إنتاجه الذي ناقشت بعضه مع الأستاذ ألبرت حوراني رحمه الله في مدينة أكسفورد (في **كلية سانت أنتوني**) عندما كنت طالباً فيها. وكان مردّ ذلك الشعور إلى تبيُّني أن منظوره القومي في كل ما عالجه من قضايا ومسائل، على مدى عقود إسهامه في خدمة الفكر العربي الحديث، هو السبيل الأمثل لتدبّر واقع الأمة العربية واستشراف آفاق مستقبلها، الذي كان يحرّك كلينا فيما يبدو لي ويحرك أجيالاً عديدة، متململة من التخلف المزمن الذي تعاني منه هذه الأمة، ومتطلعة إلى تجاوزه بالإيمان والعمل.

وعندما فكرت **جامعة دمشق** في مطلع العام الدراسي ٩٨-١٩٩٩ في تكريم قسطنطين زريق ضمن فعاليات الأسبوع الثقافي الخاص بقسم التاريخ في كلية الآداب، واختارتني لحسن ظنها بي لألقي كلمة الجامعة في حفل افتتاحه شعرت بسعادة غامرة، وبدا التكريم تكريماً لي على نحو ما لأنه سييسر لي فرصة العمر في الوقوف بين يديه والتعبير عما تفيض به النفس من مشاعر الإعجاب والتقدير لهذه الأسوة الحسنة التي كانت تتسامى إليها منذ فتنت بحروفها الأولى. وعندما جاء الموعد ووقفت أمام الجمهور المتميز الذي ملأ المدرج السادس (مدرج شفيق جبري) أحسست بغصة وخوف عندما لم أتبين وجه قسطنطين زريق بين الحضور الذي ضمّ بعضاً من زملائه ورصفائه من

أمثال نقولا زيادة ومحمد بديع الكسم وغيرهما. وهكذا ألقيت كلمتي التي نُقِلت خلاصتها إليه لاحقاً، وقدّرها كعادته في الوفاء في رسالة أرسلها بالفاكس إلى الزميلة الدكتورة خيرية قاسمية رئيسة قسم التاريخ، ممنّياً النفس بأنها ربما تكون السبب في لقائه في موعد قريب في بيروت. ومضت الأيام والشهور سراعاً وصاحب هذه السطور غارق في شؤون الإدارة والتدريس والبحث، وطال الانتظار الذي قدّر له أن ينتهي برحيل قسطنطين زريق عن عالمنا جسداً، لا روحاً، ذلك أن روحه وفكره وكلماته ستظل أبداً ماثلة في نفوس الكثيرين من أمثالي الذين تتلمذوا عليه سطوراً، أو أولئك الذين أكرمهم الدهر بالتلمذة عليه حضوراً. فقد كان بحق رائد الأمة التي لم تعرف عنه غير الصدق والإخلاص لما استشرفه لها من آفاق العزة والكرامة.

أيتها السيدات، أيها السادة،

نلتقي اليوم معاً في مفتتح الأسبوع الثقافي الرابع لقسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية لنكرّم نخبة من المؤرخين العرب المحدثين، نجتمع آيةَ وفاء، في وقت يعزّ فيه الوفاء حتى لأكثر لحظات الماضي إشراقاً وسمواً، ويلقي الحاضر بكل ما فيه من خذلان وتقاعس ظلّه فيه على مختلف وجوه الحياة العربية المعاصرة، ويبدو فيه المستقبل غير واعد إلا بمزيد من الاستسلام لإرادة الآخر الذي ازدرع نفسه في القلب منا، وتفشى شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً،

مستهدفاً إرادتنا على الصمود والمقاومة والتحدي، مستهدفاً وجودنا بوصفنا أمة عربية تسعى إلى استعادة دورها الحضاري اللائق بماضيها وطموحها.

نجتمع آية وفاءٍ، مما ينطوي على رغبة حميمة في استلهام تجربة عميقة الجذور في إيمانها بالأمة ماضياً، وحاضراً، ومستقبلاً، علّنا ننهض بما ثوى في العمق منا من انتفاضة العزيز الذي أزرى به الزمن، بعد أن أزرى سعيه، أو تواضع سعيه، به، وكاد أن يضيّعه.

ولكن ألا ينطوي هذا التكريم لقسطنطين زريق على مفارقة من نوع ما؟ وكيف نجتمع لنكرّم رئيساً سابقاً لجامعة دمشق ونفرٌ قليل جداً منا من شهد تَسنّمه لرئاستها بين عامي ١٩٤٩ – ١٩٥٢، وإذا ما تجاوزنا الوفاء الذي يشي به التكريم، فإننا نجد أن جلّنا، وإن فاته التتلمذ على قسطنطين زريق حضوراً، فقد تتلمذ عليه سطوراً، وأننا في الحقيقة نُفصِحُ بلقائنا اليوم عن حضوره في نفوسنا مصدراً لا ينضب لإيمان عميق بالعروبة.

لنستمع إليه وهو يعلق عام ١٩٩٦ على غلاف كتاب "العروبة وفلسطين: حوار شامل مع قسطنطين زريق" الذي أعدّه محمود سويد وصدر عن **مؤسسة الدراسات الفلسطينية**:

"عندما أطلعني الأستاذ محمود سويد على تصميم الغلاف والصفحة الداخلية الرئيسية من هذا الكتاب، جفلت في البدء من العنوان ومن كلمة "العروبة" التي تتصدّره لما لحق هذه الكلمة من ابتذال، ولما تثيره في أحاديثنا وبعض أدبياتنا من ارتياب واستنكار. وقد خبرت هذا بنفسي، لدى كل هزيمة أو نكبة نصاب بها، لكثرة ما تحاط به هذه الكلمة من هزء وسخرية، ولما يقابلني به البعض من غمز وتشفٍ. لكن ما لبثت أن قررت إبقاء العنوان كما هو، حفاظاً على حرمة الكلمة والعقيدة وراءها، وتدليلاً على أن ما أصابنا من انهزام واكتئاب لا يرجع إليها وإنما إلى خذلان حَمَلَتِها ورافعي لوائها، وإلى تخلف مجتمعنا العربي بوجه عام"[١].

نعم أيها السادة، ليس العيب في العروبة، وإنما فينا؛ إنه يكمن في ضعف تمثلنا لها عقيدة تُوجه تفكيرنا وسلوكنا ومواقفنا وتدبّرنا لوجوه حياتنا، مثلما يكمن في عجزنا عن استنهاض قوى الأمة الكامنة واستنفارها لتحقيق المستقبل المنشود لأبنائها. وإذا كان ألبرت حوراني قد أشار عام ١٩٦٢ إلى قسطنطين زريق على أنه "المعلم الاستشاري لجيل كامل من القوميين العرب"

---

[١] انظر: محمود سويد، ***العروبة وفلسطين: حوار شامل مع قسطنطين زريق***، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٦)، ص ×.

"A consulting don to a whole generation of nationalists"[1] فإنه لم يجانب الصواب، ولو كان ألبرت حوراني اليوم بيننا لتحوّلت كلمة الجيل في نصه إلى أجيال، ولعلّ حفلنا اليوم بما يضم من ممثلي أجيال عديدة خير شاهد على حضور قسطنطين زريق هذا، مصدر إلهام، ومبعث حافز على النهوض.

أيتها السيدات، أيها السادة،

لقد تتلمذ جلّنا على قسطنطين زريق، سطوراً، وكانت بداية معرفتي به، وبالتالي حضوره في نفسي، عندما كنت أراجع مجلة "***الطليعة الدمشقية***" التي صدرت بين عامي ٣٥ و١٩٣٩، وكان أبرز ما استوقفني في مقالات زريق الموقف الريادي الذي انطوت عليه ولا سيما في مسائل مثل "التراث الثقافي: حفظه وإحيائه"، أو "النواحي الاجتماعية من التاريخ العربي".

ولنسمعه يحدثنا عن التراث الثقافي العربي في كلمة ألقاها من **محطة إذاعة القدس** مساء الأحد في ١٣ شباط عام ١٩٣٨:

---

[1] انظر:

Albert Hourani, ***Arabic Thought In The Liberal Age: 1798 – 1939,*** (Oxford University Press, Oxford, 1970), P. 309.

"لقد تحدثت إليكم ... عن تراثنا الثقافي العربي، وعن الواجب الذي يحدونا إلى حفظه سليماً من الفساد والضياع، حرصاً على الروابط الروحية المتينة التي تصلنا به وعلى الثروة العقلية والفنية التي نستمدها منه لبناء شخصيتنا الجديدة. غير أن السعي لحفظ هذا التراث – على ضرورته وأهميته – غير كاف بنفسه، وإنما هو خطوة تمهيدية ووسيلة إلى غاية؛ ولا يتم الواجب الملقى علينا إلا بالعمل على إحياء هذا التراث إحياءً يصبح فيه قريباً منا ونحن قريبين منه، فنرد مناهله العذبة المحيية ونغبّ منها على الدوام".

"ويقوم هذا الإحياء في أن يعمد أدباؤنا الملهمون وعلماؤنا المدققون إلى الآثار العقلية النفسية التي يمتاز بها التراث العربي القديم فينقلوها إلى أبناء العربية بلغة هذا العصر وأسلوبه وطريقة تفكيره، مشيرين إلى مواطن الحق والجمال فيها، وناشرين الرسالة العلمية والأدبية المتغلغلة في طياتها"[١].

---

[١] انظر: قسطنطين زريق، "التراث الثقافي العربي: ٢- إحياؤه"، مجلة ***الطليعة*** (دمشق)، السنة الرابعة، العدد ٣، آذار، ١٩٣٨، ص (١٥٧).

ويضيف إلى هذا النوع من الإحياء القائم على تلخيص المصادر القديمة وصوغها في قوالب التفكير والتعبير الحديثين، نوعاً آخر يصاحبه ويتمّمه وهو "نشر هذه المصادر بنصوصها الأصلية وشكلها التام"[١].

وإذا ما تذكرنا أن هذا الكلام قد قيل عام ١٩٣٨ أي قبل نحو ستين عاماً ونيف فإننا ندرك أهميته ووثاقة صلته بعملية تحفيز الشعور القومي لدى العرب وبخاصة في تلك الفترة العصيبة التي سبقت الحرب العالمية الثانية.

إننا نتحدث اليوم عن إعادة كتابة التاريخ العربي ونعمل منذ سنوات في القطر العربي السوري من خلال **"لجنة كتابة تاريخ العرب"** في **جامعة دمشق** على نشر حصيلة هذا العمل في مجلة ***دراسات تاريخية*** (التي تصدرها اللجنة منذ نحو ربع قرن)، ونكاد لا ندري أننا ربما كنا نلبي بذلك دعوة قديمة عمرها أكثر من ستة عقود إلى تجديد العناية بالتاريخ العربي ولا سيما النواحي الاجتماعية منه. ولنستمع من جديد إلى صوت قسطنطين زريق يحدثنا عن دعوته القديمة هذه، يقول:

"لا إخال أحداً ينكر أن التاريخ العربي لم يدرس بعد حق الدرس، ولم يعرض للناس بصورته الصحيحة. فالقسم الأوفر منه لا يزال مدفوناً في

---

[١] انظر: ***المرجع السابق***، ص (١٥٩).

الكتب الصفراء التي تعبق برائحة الأجيال الخالية والتي يصعب على الباحث الحديث تناولها والاستفادة منها. ولئن وفق الباحثون إلى انتشال بعض ما تزخر به تلك المصادر القديمة، فإننا لا نزال بعيدين كل البعد عن أن نفهم التاريخ العربي فهماً صحيحاً شاملاً.

لست أقصد من مقالي هذا أن أعرض جميع وجوه النقص والعيب في ما وضع ويوضع من الأبحاث في التاريخ العربي. فذلك موضوع واسع النطاق متشعب النواحي والأقسام، يتناول جميع طبقات المشتغلين بهذا التاريخ على اختلاف أهوائهم وتباين مناهجهم. وإنما أريد أن ألفت نظر الباحثين إلى وجه من وجوه هذا النقص هو فيما أعتقد من الخطورة بمكان عظيم، أعني به: إهمالنا للنواحي الاجتماعية من تاريخنا العربي"[١].

ولنتذكر ثانية تاريخ هذه الدعوة وهو عام ١٩٣٦ حتى نتبين فضل ريادتها والحس المستقبلي لصاحبها، وبعد نظره، وعمق إيمانه بأمته. والحقيقة أن ريادة زريق كانت مؤسَّسة على إيمان عميق مشبع بعقلانية طاغية في سيادتها

---

[١] انظر: قسطنطين زريق، "النواحي الاجتماعية من التاريخ العربي"، ***الطليعة*** (دمشق)، السنة الثانية، العدد ٥، تموز ١٩٣٦، ص (٤١٦).

وهيمنتها التامة على تفكيره – عقلانية كانت تتنامى في نفسه مع مرور الزمن وإطالة التفكير في ماضي الأمة، وحاضرها، ومستقبلها. ولنتركه يفصح عن هذه العقلانية في تقديمه لكتابه "*نحن والمستقبل*" عام ١٩٧٥.

يكتب زريق:

"وبعد، إن القارئ سيجد تماثلاً بين بعض الآراء والأفكار التي جاءت في هذا الكتاب وبعض ما ورد في سياقات أخرى في الكتب السابقة. وإني لأرجو أن يكون هذا التماثل قد أتى، لا كمجرد ترديد وتوكيد، بل نتيجة لاتجاه فكري متماسك ومتطور في آن. وهذا الاتجاه، عندما يصح، يكون خير ما يمكن أن يطمح إليه ويحققه رجل الفكر. فالفكر كالحياة: يغتني ويغني بقدر ما ينتظم ويتكامل، وينفتح ويتطور."[1]

ولا أظن قارئاً لزريق قد فاته عمق فهم هذا الرجل للماضي من جهة، ولا صدق نبوءاته ونفاذ بصيرته عندما يتصل الأمر بالمستقبل من جهة أخرى. ولا زلت أذكر حتى يومنا هذا ما قرأت له من استشراف لآفاق الفكر العربي في

---

[1] انظر: قسطنطين زريق، ***الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق***، المجلد الثالث (**مركز دراسات الوحدة العربية**، بيروت، ١٩٩٤، ص (١٣).

السبعينات خَطَّه يراعه في نهاية الستينات، ودهشتي الكبيرة وفرحي العارم، وسعادتي الغامرة وكأني قد وقعت على كنز ثمين، فقد كان ما قرأته لقسطنطين زريق من استشراف للمستقبل وصفاً دقيقاً لحاضر خَبَرَهُ خبرة مباشرة، حتى إن ألبرت حوراني رحمه الله تبين هذا الرضى في عيني أثناء لقائي به في ذلك اليوم وسألني عنه، وعندما حدثته بحديث قراءتي لزريق قال: تذكر يا عبد النبي "**أن ثروة سورية الحقيقة هي في رجالها**"، عندها تبينت أن ضمان مستقبل سورية ودورها كطليعة للنضال العربي من أجل مستقبل أفضل للأمة كلها لن يتحقق من دون الحفاظ على هؤلاء الرجال، ولا سيما أولئك الذين يتمسكون بانتمائهم لها ويحرصون عليها حرصهم على حياتهم، بل لعلهم ربما يفتدونها بهذه الحياة.

أيتها السيدات، أيها السادة،

إننا إذ نحتفي اليوم بقسطنطين زريق، ونعمق حضوره في نفوسنا، فإننا ينبغي أن نتمثل سيرته في أمور عديدة:

أولها: تحصيله المعرفي المتنامي. فقد:

"التحق زريق بالجامعة الأميركية وبدأ تخصصه بالرياضيات. إلا أنه تحول، إلى التاريخ بعد وقت قصير بتشجيع من بعض أساتذته. وكان قد شغر آنذاك

كرسي التاريخ العربي، فرشح زريق لإتمام دراسته التخصصية في الولايات المتحدة في هذا الموضع إعداداً له لتولي هذا الكرسي. وبعد أن تخرج بدرجة بكالوريوس في الآداب بامتياز عام ١٩٢٨ سافر إلى الولايات المتحدة حيث نال الماجستير من جامعة شيكاغو في عام ١٩٢٩، والدكتوراه من جامعة برنستون في عام ١٩٣٠"[١].

وثانيها: التزامه بالعمل العام وتمسكه بدوره في المجتمع بوصفه مفكراً يؤدي وظيفة حيوية فيه، فإلى جانب وظائف زريق الرسمية المتعددة فإننا نجده قد نشط، وما زال في العديد من

"المنظمات الثقافية الإقليمية والعالمية واحتل مناصب رفيعة في العديد منها. فهو عضو مراسل في **مجمع اللغة العربية** في دمشق، وعضو مؤازر في **المجمع العلمي العراقي**، وعضو فخري في **الجامعة التاريخية الأميركية**. وكان عضواً في **المجلس التنفيذي لليونسكو** (١٩٥٠ – ١٩٥٤)، وعضواً في

---

[١] انظر: د. هاني أحمد فارس، "قسطنطين زريق: داعية العقلانية في الفكر العربي الحديث"،

في: أنيس صايغ (تحرير)، ***قسطنطين زريق: ٦٥ عاماً من العطاء***، ط١، (بيروت، ١٩٦٦)، ص (١٣٤).

المجلس الإداري للهيئة الدولية للجامعات (١٩٥٥ – ١٩٦٥)، ورئيساً لهذه الهيئة (١٩٦٥–١٩٧٠) وأصبح من ثم رئيساً فخرياً لها منذ عام ١٩٧٠. كما انتخب رئيساً لجمعية **أصدقاء الكتاب في لبنان** (١٩٦٠- ١٩٦٥)، ورئيساً لمجلس **أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية** منذ أن أسست هذا المؤسسة في عام ١٩٦٣. وهو منذ عام ١٩٧٩ من أعضاء مجلس أمناء **جامعة قطر**. وشملت نشاطات زريق الثقافية المميزة عضويته في الهيئة الدولية لكتابة التاريخ العلمي والحضاري للإنسانية التي رعتها **منظمة اليونسكو** (١٩٥٠–١٩٦٩)، ورئاسته للجنة الخبراء الدولية لدراسة سياسات القبول في الجامعات (١٩٦٠- ١٩٦٢)، ومشاركته في لجنة الخبراء التي قامت بتقديم المشورة للحكومة الكويتية حول إنشاء **جامعة الكويت**. وتقديراً لنشاطاته فقد قامت الحكومة السورية بتقليده **وسام الاستحقاق** (درجة ممتازة)، وقلدته الحكومة اللبنانية **وسام المعارف** (درجة أولى) **ووسام الأرز الوطني** (درجة كوماندور)، ومنحته **جامعة ميشغان** دكتوراه فخرية في الآداب"[١].

وثالثها: تمسكه بالعربية لغة تفكير وتعبير وإفصاح. فعلى الرغم من أن زريق قد قضى "جميع مراحل حياته الجامعية في مؤسسات أجنبية، وارتبط خلال

---

[١] ***المرجع السابق***، ص (١٣٥).

معظم سنوات العمل في حياته بمؤسسة تربوية أجنبية" فإنه اختار أن يخاطب باستمرار القارئ العربي، وأن يتوجّه في كتاباته إلى المواطن العربي، وأن تكون المواضيع التي يختار الكتابة بها ذات صلة مباشرة بالأوضاع السائدة في العالم العربي وبمستقبله"[1].

ورابعها: عقلانيته التي نحن بأمسّ الحاجة إليها هذه الأيام الحرجة من حياة الأمة، كي نتخذها منهج حياة نتدبّر بها جميع وجوه وجودنا المهدّد.

يكتب زريق في رسالة إلى هاني فارس مؤرخة في الثامن عشر من تشرين الأول من عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف، يوضح فيها القضايا الأساسية التي شغلته في حياته فيقول:

"الباعث الأول للاهتمام بالقضايا التي عالجتها في مؤلفاتي ... هو الإحساس العميق بالأزمة الشاملة التي يجوزها المجتمع العربي في هذه الآونة وبتبعة المفكر – مهما يكن اختصاصه العلمي أو المهني – في معالجة القضايا التي تطرحها هذه الأزمة. إن هذين الشعورين المزدوجين المتفاعلين يتخللان جميع مؤلفاتي ... ولعلي اعتبرت أن أول ما يجب القيام به بعد إثارة هذه القضايا هو الإقبال على توضيح المفاهيم الأساسية

---

[1] ***المرجع نفسه***، ص (١٣٥).

التي تنطوي عليها والتي يحيط بها الكثير من الاضطراب والبلبلة في أجوائنا الفكرية والعملية. فما هي الأمة، وما مكوناتها؟ وهل ثمة أمة عربية، وما شأنها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً؟ ما القومية؟ وهل هي مجرد حركة تحرر من الاستعمار، أم يجب أن يكون لها محتوى إيجابي، وما هو هذا المحتوى؟ وهل يمكن أن نفصل الأمة، والقومية، عن الواقع الحضاري؟ إذن ما الحضارة، وكيف تتمايز الحضارات؟ وما هي ميزات الحضارة العربية الإسلامية في السالف، والحضارة العربية التي نتشوقها في الحاضر والمستقبل؟ وهذا يثير علاقتنا بالتاريخ، بالماضي من جهة وبالمستقبل من جهة أخرى، وأيهما يجب أن يتقدم على الآخر ويتحكم به؟ وفي هذا والثورية المضمار ما معنى التقدمية والمجتمع المتقدم، والرجعية والمجتمع المتخلف؟ وإذا كان تخلفنا يفرض علينا السعي للنهوض المتسارع وللتوثب وللجذرية في الفكر والعمل، فما هي الثورية المنشودة؟ وهل يمكن أن نفصل أوضاعنا، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً عن أوضاع بقية الشعوب والإنسانية جمعاء، خصوصاً في هذه الآونة التي توثقت بها الروابط بين الشعوب وكاد مصير الإنسانية أن يصبح واحداً؟".

"إني أعتقد أن (١) إثارة القضايا الكبرى التي تجابه المجتمع العربي الحاضر، و(٢) إيضاح المفاهيم الأساسية التي تنطوي عليها و(٣)

تحري الروابط التي تربط هذه القضايا بعضاً ببعض وترتيب القضايا حسب أولويتها وأهميتها – إن هذا هو من أهم الواجبات الملقاة على عاتق المفكرين العرب في هذه الأيام، وأرجو أن أكون أسهمت بنصيب- ولو قليل- في أداءِ هذا الواجب"[١].

نعم يا سيدي، لقد أسهمت بنصيب وافر (والشهادة لله) في أداء واجبك تجاه الأمة، وما قصّرت في هذا الواجب في يوم. وما علينا إن كنا أوفياء حقاً لك ولهذه الأمة، إلا أن نتأسى خطاك التي كانت باستمرار خطى متبصرٍ، فهِم الماضي، وخَبرَ الحاضر، وتطلع إلى المستقبل ببصيرة نافذة، نفتقدها.

ولنستمع إليه مجدّداً يختم حديث هذا الصباح بتأمله في حال جامعاتنا، وأوضاعها الراهنة، ولا سيّما أنّ احتفاءنا بزريق وتكريمنا له اليوم يتمّان في رحاب جامعة دمشق، وبرعاية رصيف له هو الأستاذ الدكتور عبد الغني ماء البارد.

يقول:

"فأخذت الجامعات العربية تقدم إلى بلادها ألوفاً من الخريجين الذين لا يجدون عملاً لهم. وأصبح هذا الخلل في التوازن عاملاً أساسياً

---

[١] *المرجع نفسه*، ص (١٦٩).

في نشوء الشعور بالإحباط والفشل عند هؤلاءِ الشبان. ومن ناحية ثالثة، أظن أن قيادات الحكم عامة، والقيادات الجامعية خاصة، لم تكن تقدّر العمل الجامعي على حقيقته. فالأساتذة ما زالوا، في الأغلب، يمارسون هذا العمل بـ "تلقين" طلابهم المعلومات المتفرقة في حقول اختصاصاتهم. ومادة هذا التلقين تقتصر، في كثير من الأحيان، على كتب قليلة وعلى موجزات يعدّها الأستاذ ويكرّرها عاماً بعد عام، بينما المقصود من التعليم الجامعي تنمية الطالب ليتعلم بنفسه. ثم إنّ التربية الجامعية لا تقتصر على التعليم فحسب، بل تتناول أيضاً النواحي الخلقية والإنسانية من شخصية الطالب. وبسبب كثرة الطلاب لا يتسع وقت الأساتذة للعناية بهذه النواحي، بل لعلها غائبة عن أذهانهم أو أذهان المسؤولين في إدارات الجامعة أو في دوائر الحكم. هذه كلها ضغوط ونواقص تحدّ من نتاج الجامعات العربية. وإني أعتقد أن هذه القضية، وسواها من القضايا الجامعية، حريّة بأن تكون في مقدم الأولويات في التنمية القومية لأن الجامعات هي المراكز الأولى في هذه الأيام لإعداد العناصر البشرية المؤهلة لإجراء "التنمية" في أيّ من مجالاتها"[١].

---

[١] انظر محمود سويد، ***العروبة وفلسطين: حوار شامل مع قسطنطين زريق***، ***المرجع السابق***، ص ص (١٣–١٤).

لقد صدقت يا سيدي في كل ما كتبته، وكنت بحق "الرائد الذي لا يكذب أهله"، وما علينا إلا أن نكون صادقين مع أنفسنا وصادقين مع الغير.

مدّ الله في عمرك، ومنحك موفور الصحة والعافية والنشاط، ومتعنا بالمزيد من إنتاجك، وعطائك لأمتك، وبصّرنا في أن ثروة سورية الحقيقية هي رجالها، وألهمنا أن نحافظ عليهم ذخراً لها، ولمستقبلها الذي نتطلع جميعاً إليه، قبل فوات الأوان.

آذار ١٩٩٩ - جامعة دمشق



عبد الهادي هاشم

(١٩١٢-١٩٨٨م)



عندما نتلفت فلا نجدهم:

وقفة مع المرحوم عبد الهادي هاشم [1]

١. أقواس

"ولا بد أن يرد الحق إلى أهله، ولا بد من أستأذن فخامتكم في إشارة موجزة إلى تاريخ التفكير في عقد هذا المؤتمر، وأول تفكير في عقد هذا المؤتمر إنما كان في اجتماع اللجنة الثقافية للجامعة العربية في جدة، وكان الفضل فيه لممثل سورية العظيمة، وفي ذلك الوقت كان الزميل عبد الهادي هاشم يمثل سورية في اللجنة الثقافية، فهو الذي أوحى إلينا بهذه الفكرة ولا غرابة في هذا، فما رأيت إلى اليوم أحداً كالسوريين لا ينسى العروبة ومجد العروبة ومستقبل العروبة، وما رأيت أحداً كالسوريين يذكر هذا ويستصحبه في حله وترحاله، يفكر فيه كما يفكر في نفسه، فالعروبة جزء مقوم لكل عقل سوري.

---

[1] انتقل إلى جوار ربه يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى ١٤٠٨هـ/ الموافق لـ ٨ كانون الثاني ١٩٨٨م.

كان الذي أوحى إلينا بالتفكير في هذا المؤتمر رجلاً من رجال سورية. فكان من الطبيعي أن يكون عقد أول مؤتمر للمجامع العلمية في مصدر التفكير فيه: في دمشق مهد العروبة وعاصمتها".

طه حسين

في حفل افتتاح مؤتمر المجامع العلمية الأول بدمشق

"إني أملت يوماً أن تكونَ في استقبالي في هذه القاعة، إذا ما قيض لي الدخول إلى هذا الصرح العظيم، فقد كبرتني بسنوات، وكنت ذا سابقة في خدمة العربية، والعمل على تحقيق أغراض هذا المجمع الذي نفاخر العرب به، وكان من حق سابقتك، أن تكون سابقاً في الدخول إليه، ..

يسعدني في هذه الأمسية الزاهرة بمشاركتكم، أن قدم إليكم واحداً من رجال يعتز مجمع دمشق بأن يضمهم إليه، فيقوى بهم على حمل العبء الذي نهض له خمسين عاماً ما ناء به، عبء لغة الضاد أم اللغات، لسان الذكر المبين".

د. عدنان الخطيب

في جلسة استقبال العضو الجديد عبد الهادي هاشم

٢. عبد الهادي هاشم: فسحة بين اللغة والفكر

إذا كان كل نص جديد نُنتِجُه ما هو في نهاية الأمر غير حصيلة لما يسمى بعملية التناص Intertextuality –أو عملية تفاعل النصوص فيما بينها إذ تتراكم في حاسوبنا الإنساني العجيب الذي ندعوه بالدماغ البشري، فإن الواحد منا، عند التأمل بعمق حقيقةَ ما وصل إليه من معرفة وعلم، يدرك أن ذلك لا يعدو كونه رواسب الآخرين فينا، ما تركوه في أنفسنا بطريق أو بأخرى، من أثر.

وإذا كانت اللغة -فيما يزعم المفككون Deconstructionists- هي التي تتحدَّث من خلالنا، فإن هؤلاء الآخرين هم الذي يتحدّثون بألسنتنا من خلال نصوصهم التي تراكمت في حاسوبنا الإنساني ولكننا إذ نغفل، أو لا نفكر كثيراً في عملية التناص هذه، ننسى الخيوط الأولية التي تشكّل منها نسيج texture نصوصنا التي ننتجها، وننسى بالتالي منتجيها. وعلى الرغم من ذلك فإننا عندما نتأمل بعمق الفسحةَ التي كانت لهؤلاء في ذواتنا ندرك أصول إنشائنا ونتبين ما لنا ولهم فيه. وربما كان من المخيِّب للغرور الفردي فينا أن نكتشف أن نصيبنا فيه محدود، بل هو محدود جداً. ولكن يبدو أن هذا شأن المعرفة البشرية التي تأسرها لنا اللغة الطبيعية نصوصاً تُنتَج وتُستهلَك دون كبير تفكير في طبيعتها.

والمشكلة هي أننا لا ننظر في فسح الآخرين في ذواتنا إلا عندما نلتفت فلا نراهم، إلا عندما يغيبون فيزدادون عندها حضوراً، مع أن بعضهم يمضي عن عالمنا هذا باستحياء شديد.

وهكذا مضى عبد الهادي هاشم بصمت، كما كان يعمل في العقود الخمسة المنصرمة بصمت، وخرج من دنيانا بتواضع المقرِّ بقسوة الشرط الإنساني. مثلما عاش فيها بيننا بتواضع العالِم الذي **كلما ازداد معرفة ازداد إحساساً بالجهل**.

وإذ أتأمل في نفسي، في لحظة غيابه-الحضور، أدرك، وعلى الرغم مني، قصر الفترة التي أسعفتني بها الأيام، أنها فسحة ممتعة ومفيدة كما هو شأن الأدب الرفيع الذي أوصى به هوراس. ولعل أهم ما تعلمته منه هو أن المرء بتواضعه مثلما هو بعلمه؛ وأن سحر لقاء الآخرين خير طريق، وأقصرها لقلوبهم ونفوسهم وعقولهم؛ وأن اللغة، التي لا نكاد نفكر فيها، إذ نستخدمها كما نستخدم الماء والهواء في حياتنا، ليست مجرد أداة تعبير، أو وسيلة تواصل وحسب، وإنما هي أداة تفكير، وأننا بمقدار ما يكون لنا من هذه اللغة، سعة معرفة، وطول تمرس وخبرة، ودقة استخدام، يكون لنا من ذاك التفكير: سعة أفق، وعمق تبصر، ووضوح رؤية.

ولكنني لم أتبيّن ذلك بسهولة، لقد استغرق الأمر بداية ما يقرب من تسعة شهور كنت أواظب فيها على حضور محاضرات الأستاذ عبد الهادي هاشم في فقه اللغة، وأدرك بعد كل ساعة تنصرم منها أسراراً جديدة في لغتنا، **لغة الأضداد** كما كان يسميها (وليست لغة الضاد كما هو شائع بيننا). وكان تبيّني لدور اللغة في تشكيل الفكر في ساعة حرجة جداً هي ساعة الامتحان، وما أدراك ما ساعة الامتحان عندما تجلس في قاعته، وحاسوبك الإنساني العجيب في وضع "استنفار" يُعِدّ العُدّة ليجمع، إذ يعالج ما دُوِّن على ورقة الأسئلة، ويصنّف ويبوّب، ويستبعد ويطرح، ويحلّل، ويركّب، ويصل فيما بعد إلى النتائج في موضوع لا بداية له ولا نهاية، هو اللغة، لغتُك أنت التي تعيش فيها، وبها، وتعيش فيك، وبك، وقد حدّثك في أسرارها **منجم معرفة يتدفق في بيان ساحر، وحضور آسر**، وأحالك في حديثه، الذي كان أبداً ممتعاً مؤنساً، مثلما كان واضحاً وعميقاً، إلى عشرات المصادر والمراجع تستعين بها على متابعة كشف هذه الأسرار.

"**تصنع اللغة الفكر حين يصنع الفكر اللغة**"؛ ناقش. وتلتهم عيناك السطر، تقرؤه ثانية وثالثة ورابعة وخامسة... وعاشرة، تود أن تفكك ما وراء نظامه الترميزي code، وهو، فيما يبدو، السهل الممتنع. وما تلبث أن تقر بعجزك، وترتد إلى داخلك، تتأمل ما في نفسك تأملاً عميقاً، وبينما يعمل حاسوبك

بسرعة عبقرية معجزة ما زالت سراً، تتكشف لك الأمور رويداً رويداً، وتتبين عظمة ما تركه هذا الرجل من فسحة في نفسك إذ أراد أن تعيد التفكير في هويتك، لغتك-لسانك، العربية. وهل ثمة أعمق وأخطر من هذا؟ خاصة وأنه يودك أن تصدر في عملية إعادة التفكير هذه عن كل ما سمعته منه، وما حفزك على قراءته خلال عام كامل، انصرم بانصرام دورة الامتحان، وما سيحفزك على قراءته خلال ما يلي من أعوام، تحمل لك في كل يوم معرفة جديدة تتعمق بمرور الزمن، وإحساساً أعمق بالجهل. وكيف لمن يشرب الماء الأجاج أن يروي ظمأه، وكيف لمن يمتح من محيط المعرفة أن يحس بأنه سيكتفي في يوم.

والحقيقة أن الأستاذ عبد الهادي هاشم، فيما يبدو لي، قد استطاع أن ينشر في كل من اتصل به -وقد مارس نشاطه في مؤسسات عديدة مختلفة: تربوية، وثقافية، وعلمية، ومجمعية- هذا الحافز على إعادة التفكير في لغتنا من جهة، وفي صلة هذه اللغة بالفكر من جانب آخر لأنه استطاع أن يجمع في رؤيته لها بين منظور الداخليّ Insider ومنظور الخارجي Outsider؛ بين فهم الداخلي الثاقب للغته الأم، وفهم الخارجي المتموضع خارجها، والناظر فيها نظر المنسلِخ عنها تماماً. ذلك أنه حتى يفهم المرء، وعلى نحو خلاق، أي موضوع ينظر فيه، فإن عليه أن يكون -كما يذكر الناقد واللغوي السوفييتي العظيم

باختين Bakhtin- "مموضعاً خارج موضوع فهمه الخلاق"- في الزمان والمكان والثقافة. لأن المرء لا يستطيع حتى أن يرى بحق خارِجَه ويفهمه ككلّ، ولا يمكن للمرآة وللصور أن تساعده. إن خارجنا الحقيقي لا يمكن أن يراه أو يفهمه إلا الناس الآخرون، لأنهم يقفون خارجنا في المكان، ولأنهم آخرون.

إن الخارجية Outsideness في مملكة الثقافة أكثر العوامل فعالية في الفهم. ففي عيون الثقافة الأخرى وحدها تكشف الثقافة الأجنبية نفسها بشكل تام وبعمق" [١].

ولكن كيف تأتى للأستاذ عبد الهادي هاشم ذلك؟

كيف استطاع أن يكون الداخلي والخارجي في آن معاً؟

كيف تمكن أن يضع نفسه خارج لغته ويفهمها فهماً خلاقاً؟

أعتقد أن النظر في تكوينه الثقافي ربما يسعفنا في تبين مفتاح ذلك كله.

ولد الأستاذ عبد الهادي هاشم في دمشق القديمة (حمام القاري، حي القيمرية) سنة اثنتي عشرة وتسعمائة وألف، وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية

---

[1] M. M. Bakhtin, ***Speech Genres and Other Late: Essays,*** Translated by Vera W. McGee, Edited by Caryl Emerson and Michael Holquist, (University of Texas Press, Austin, 1986), p.7

لأسرة دمشقية عريقة لم تهمل المعرفة والعلم، وإن عنيت بهما عناية تقليدية. وكما كان شأن أبناء الأسر الدمشقية التي كانت تسكن داخل دمشق القديمة وحول جامعها الأموي، بدأ رحلته مع المعرفة في "**المدرسة الجقمقية**" التي كان على رأسها الشيخ عيد السفرجلاني. وانتقل بعدها إلى عدد من المدارس الأهلية والأجنبية لينتهي به المطاف إلى "**مكتب عنبر**" ثانوية دمشق الحكومية الفريدة، وينال فيها شهادة البكالوريا السورية بقسميها الأول والثاني في عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠ على التوالي. وانتسب بعد ذلك إلى "**مدرسة الأدب العليا**" في "الجامعة السورية" (جامعة دمشق اليوم)، و"**كلية الحقوق**" فحصل على شهادة "**مدرسة الأدب العليا**" –شعبة الأدب العربي عام ١٩٣٥ وكان الأول بين خريجي دفعته. وحالت الوظيفة بينه وبين متابعة دراسة للحقوق فانصرف عنها يعلِّم خارج دمشق عدة سنوات حتى عام ١٩٣٦ عندما أوفدته وزارة المعارف إلى كلية الآداب في السوربون لدراسة الأدب العربي واللغات السامية القديمة حيث درس لغة الجعز (اللغة الحبشية القديمة). وفي باريس انتسب الأستاذ عبد الهادي هاشم إلى معهد الدراسات الإسلامية العليا، ومدرسة اللغات الشرقية الحية، وحصل على شهادات عدة منها:

١. شهادة دراسات المدنية الإسلامية.

٢. شهادة مدرسة اللغات الشرقية الحية.

٣. شهادة في اللغات السامية القديمة.

٤. الإجازة في الآداب.

كل ذلك في ثلاث سنوات عاد في نهايتها إلى دمشق ليدرس في المدارس الثانوية، ويدير دار المعلمين فيها، ويعمل في وزارة التربية بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٦.

وفي عام الجلاء أوفد الأستاذ هاشم ثانية ولكن إلى جنيف هذه المرة ليتم فيها دراسته للغات السامية والحامية حيث تمكن من المصرية القديمة والعبرية وغيرهما، ونال في الأخيرة جائزة "باومان" عن دراسة وضعها عن الفيلسوف اللغوي اليهودي "سعاديا غاوون" المعروف لدى العرب بـ "سعيد بن يوسف الفيومي".

وفي عام اثنين وخمسين وتسعمائة وألف وضع الأستاذ هاشم تحت تصرف اليونسكو ليعمل خبيراً في القطر الليبي الشقيق حتى عام أربعة وخمسين وكان في أثناء هذين العامين كما يصفه رصيفه الدكتور عدنان الخطيب "خير سفير

بين شقيقين، يحمل الحب والود بين جنبيه، كما يحمل رسالة الفكر بين يديه"[١].

وعند عودته من ليبيا عين الأستاذ هاشم رئيساً للجنة التربية والتعليم في وزارة المعارف، ثم أميناً عاماً للوزارة حتى عام ١٩٥٥ عندما تولى إدارة دار الكتب الظاهرية إلى بداية عام ١٩٥٩. بعدها عين مديراً للتراث في وزارة الثقافة، ثم مديراً للشؤون الثقافية، ثم أميناً عاماً مساعداً للشؤون الثقافية فمعاوناً لوزير الثقافة عام ١٩٧٠ حتى إحالته على التقاعد في بداية عام ١٩٧٤.

انتخب الأستاذ هاشم عام ١٩٦٨ عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وسمي عضواً مؤازراً في المجمع العلمي العراقي، كما كان عضواً في اللجنة الوطنية لليونسكو، وعضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

ولم تقتصر مشاركته العامة على ذلك كله، إذ كان أستاذاً محاضراً في كليتي التربية والآداب بجامعة دمشق منذ عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٨٤. وكان

---

[١] انظر: "خطاب الدكتور عدنان الخطيب في حفل استقبال الأستاذ عبد الهادي هاشم"، في:
مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ٤٤، الجزء الرابع، تشرين الأول ١٩٦٩، رجب ١٣٨٩، ص ص ٩٤٨-٩٤٩.

من أبرز ما درس فيهما فقه اللغة لطلاب الدرجة الجامعية الأولى، والدراسات اللغوية بالعربية والفرنسية لطلاب دبلوم الدراسات العليا في قسم اللغة العربية وآدابها. وكذلك فقد مثّل القطر العربي السوري في الكثير من المؤتمرات العلمية والتربوية، ولا سيما مؤتمرات اليونسكو، والإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية الدولي في جنيف، ومؤتمري المستشرقين في بروكسل وباريس.

وهكذا كان اجتماع الداخلي والخارجي في نفسه خلال هذه العقود كلها، طالباً للمعرفة، وناشراً لها، أستاذاً وإدارياً وصاحب مشاركات عامة. وإذ أتيحت له معرفة لغات عديدة: قديمة وحديثة فقد استطاع أن يتبين سر عظمة لغته الأم-العربية، الهوية (أوليست العربية عربية اللسان ومن تكلمها فهو عربي). ولعل الصلة الوثيقة التي انعقدت في نفسه بين اللغة والفكر قادته إلى هذا الإيمان القوي بعروبته. ولقد تجلى ذلك خير تجل في الإنجاز العظيم الذي شارك فيه وهو **الموسوعة الفلسطينية**، إذ شاء فيما يبدو أن يختتم فترة نشاطه الذي امتد أكثر من نصف قرن بخدمة جليلة لن ينساها أي معني بقضية العرب الأولى: قضية فلسطين. وهكذا رأيناه ينهض برئاسة تحرير هذه الموسوعة ما يقرب من ثماني سنوات عمل فيها ليل نهار حتى خرجت في أربعة مجلدات

ضخمة لتكون، كما وصفها رصيف الأستاذ هاشم ومدير الموسوعة العربية الكبرى الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، "عملاً رائعاً فذاً".

فسحة معتبرة هي فسحة الأستاذ هاشم في نفس كل من اتصل بها، فسحة من أدرك عبقرية اللغة حينما نظر فيها بعيني الداخلي والخارجي، وتبين قدرتها على تشكيل الفكر، على صناعته، فجعلها محور حياته التي كانت مثل ساع أبي تمام وأيامه مفعمة بالعزم والحزم، ولكن الشرط الإنساني أبداً قاس: فالإنسان -كما يقول البياتي- محكوم بالحياة/الموت:

"محكوم بالإعدام أنا..

مع وقف التنفيذ.

عقوبتي الحياة."

كانون الثاني ١٩٨٨ - جامعة دمشق



إحسان عباس

(١٩٢٠-٢٠٠٣م)


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقفة مع عميد الأدب العربي الثاني:

الدكتور إحسان عباس

يشير الدكتور محمد مندور في معرض حديثه عن "النقد ووظائفه" في كتابه القيم ***"في الميزان الجديد"*** إلى أن "كل تفكير لا بد له من مثير" [(١)]، ومن يعرف الدكتور إحسان عباس أستاذ الأساتذة، والعميد الثاني للأدب العربي دراسته ونقده، ويعرف الوجوه المتنوعة الغنية لمجهوده، فإنه لا بد وأن يصل إلى أن أحب هذه الوجوه، وخاصة إلى من تتلمذ عليه، هو وجه **"الأستاذ الملهم"** إذ يكفي أن تلتقي به ساعة حتى تعيش على ما يثيره فيك أثناءها لشهور أو ربما لسنين.

[(١)] انظر: د. محمد مندور، ***في الميزان الجديد***، ط٣، (القاهرة، د.ت.) ص ١٠.

من هنا فإن زيارته للقطر يرأس اجتماعات "**لجنة جائزة بيروت**" التي يمنحها **الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب** للمرة الأولى، هي مناسبة خاصة حقاً.

وقد كان لقاؤه الذي خص به مجموعة من كتاب القطر ضمت كلاً من الأساتذة علي عقلة عرسان، وعبد الله أبو هيف، ومحمد عمران، وميخائيل عيد، وعادل فريجات، وأسعد صقر، والدكاترة حسام الخطيب وعمر موسى باشا، ورضوان الداية، إضافة إلى الشاعرة عفيفة الحصني في مبنى **اتحاد الكتاب العرب** في الحادي والثلاثين من الشهر المنصرم (تموز ١٩٨٥) أكبر شاهد على أهمية هذا الوجه في شخصية هذا الفيض من الحكمة والعلم والتواضع والأنس والسحر وجه "**الأستاذ الملهم**"، إذ كان اللقاء غنياً بكل ما فيه، وكان الدكتور إحسان عباس فيه نعم "المايسترو" يثير الأفكار ويوجهها ويقلّبها على مختلف وجوهها، ليعرضها في النهاية موجزة واضحةً دقيقة.

مفهوم الدورة كبديل لمفهوم التطور

يذكر البروفيسور رينيه ويليك في فصل "سقوط التاريخ الأدبي" من كتابه الأخير "**الهجوم على الأدب ومقالات أخرى**" المحاولات المختلفة التي

حاولت استخراج تاريخ تطوّري للأدب، ويبدي شكّه في جدواها في التاريخ الأدبي، خاتماً حديثه بقوله:

"لقد أخفقت محاولات التاريخ التطوّري. لقد أخفقتُ أنا بالذات في **تاريخ النقد الحديث** [1] في أن أخرج بتخطيط مقنع للتطوّر، واكتشفت بالخبرة أنه ليس ثمة من تطوّر في تاريخ المحاجّة النقدية، وأن تاريخ النقد هو بالأحرى سلسلة من المناظرات حول مفاهيم متكررة، حول مفاهيم مختلف عليها في الأساس، حول مشكلات دائمة، بمعنى أنها معنا حتى في هذا اليوم...

فليس ثمة من تقدم، ليس ثمة من تطور، ليس ثمة تاريخ للفن إلا ما كان تاريخاً للكتّاب، والمؤسسات، والتقنيات، إن هذا -على الأقل بالنسبة لي- نهاية وهم، إنه سقوط التاريخ الأدبي" [2].

---

[1] الإشارة هي إلى تاريخه المشهور: " **تاريخ للنقد الحديث: ١٧٥٠-١٩٥٠**" **History of Modern Criticism: 1750-1950**، والذي صدر في ثمانية مجلدات ضخمة، ترجم مجاهد عبد المنعم مجاهد بعضها إلى العربية، ونشره **المجلس الأعلى للثقافة** في جمهورية مصر العربية.

[2] انظر:

ويبدو أن الدكتور إحسان عباس في معايشته للتاريخ الأدبي العربي على مدى ثلاثة عقود ونصف قد خرج بنتيجة مشابهة وهي رفض فكرة التطور في الشعر العربي. وقد كان لقاؤه مع عدد من كتّاب القطر ونقاده فرصة له لمناقشة ذلك من جهة، وطرح بديل عن فكرة التطور التي وجد أنها غير مجدية في تفسير ما طرأ على الشعر العربي من تغيرات عبر العصور المختلفة من جهة أخرى.

والحقيقة أن الذي أثار هذه القضية هو سؤال وجهه الدكتور حافظ الجمالي يمكن إيجازه على النحو التالي:

"أين نحن في ميدان الشعر اليوم؟".

هل نحن أمام نوع أدبي يضاهي في قيمته ما سبق من شعر عربي منذ الجاهلية؟ وهل يرى الدكتور إحسان أنه سترافق هذا الشعر الحديث نهضة مماثلة لتلك النهضة التي واكبت تطور الأدب الأوربي في القرن السابع عشر؟ وقد انطلق الدكتور الجمالي في سؤاله هذا من نظرة ترددت أصداؤها لدى عدد من الحضور ترى أن الشعر الجاهلي هو أرقى شعر خلّفه العرب. فعلى الرغم

René Wellek, **The Attack on Literature and Other Essays**, (The Harvester Press, Brighton, Sussex, 1982), P.77.

من أن القرن الهجري الثالث قد شهد تجدداً في ميداني اللغة والشعر، وعلى الرغم من تألقهما فيه، فإن الناس ظلوا يعتقدون بأفضلية الشعر الجاهلي وبأن الأدب العربي قد تدهور فيما بعد إلى أن جاء الشعر الحديث الذي ربما يرى البعض فيه اليوم التجديد المنشود.

وفي معرض إجابة الدكتور إحسان عباس عن هذا السؤال أشار إلى أنه لا يميل إلى قبول فكرة التطور التي يتضمنها سؤال الدكتور الجمالي، لأن ما حدث بعد الشعر الجاهلي لم يكن تطوراً بلغ ذروته في المتنبي، وانحدر بعد ذلك إلى أن كانت النهضة الحديثة، وهي في رأيه نهضة في اللغة وليست في الفن، إذ ظل الشعر العربي فيها يستعيد ماضيه بأبعاده المختلفة، وبعدها جاء الشعر الحديث. وهو لذلك يعتقد أن من الخير لنا ولأدبنا أن يُرى على شكل دورات "circles" وليس من منظور تطوري [١] لقد قام الشعر الجاهلي الذي يمثل الدورة الكبرى الأولى على أسطورة جاهلية تعلي من شأن الشجاعة لأي سبب مهما كان تافهاً، والكرم الذي يصدر عادة عن المقامر والشارب، ولأنه يخاطب البدائية فينا واللاشعور الجمعي بالمعنى الذي يتحدث عنه يونغ، فإننا

---

[١] استخدم الدكتور إحسان عباس مصطلح "حلقة" في البداية وما لبث أن عدل عنه أثناء النقاش إلى مصطلح دورة متبنياً بذلك اقتراح الدكتور حسام الخطيب وأعطى بذلك مثالاً ممتازاً على انفتاحه وتواضعه وأستاذيته.

نُعجب به حتى اليوم، ونتحدث عن بعد إنساني فيه نفتقده فيما تلاه من شعر في العصور اللاحقة. وجاء الإسلام بعد ذلك فرفض الأسطورة الجاهلية، بل حطّمها، إذ ربط قيم الجاهلية بخدمة الدين. وعلى الرغم من أن الإسلام قد استعان بالشعر ومجّده فإنه لم يأل جهداً في تفتيت الأساس الذي قام عليه. والواقع أن الأدب العربي لم يستعد عافيته حتى خلق أسطورته الجديدة من خلال الإسلام والصراع معه.

وعلى هذا فإن شعر أبي تمام ليس تطوراً في الشعر العربي، بل هو دورة جديدة فيه، كان وراءها التحول الحضاري الذي شهدته الأمة العربية في ذلك العصر، وتبعت دورة أبي تمام ومعاصريه دورات أخرى أملت كلاً منها ظروف وأوضاع جديدة. وجاء عصر النهضة الذي لم يكن نهضة فنية أبداً بل نهضة لغوية وسياسية، وجاء معه الاحتكاك العربي الأوربي، والتأثير الأوربي المتنوع في الشعر العربي، إلى أن طغى طغياناً تاماً، فوجدنا أبا شبكة يستوحي بودلير، وطلاب مدرسة المعلمين العليا (عبد الرحمن شكري، والمازني، وسواهما) وجماعة أبولو يستوحون الشعراء الرومانتيين الإنكليز، ودخل الأدب العربي في دورة جديدة، هي دورة الشعر الحديث.

ويتابع الدكتور عباس:

لقد رحبنا بالدورة الجديدة بداعي السأم من القرون الأربعة عشر التي أثقلتنا ودفعناها إلى الأمام بحيث أصبحت تعبر عن متطلبات عصرية بصورة عصرية. وهكذا قبلت الدورة الجديدة دون تحفظ، ولكن طلب الجدّة المستمر فيها كان يقود إلى التجارب المستمرة، وهذا طبيعي، وطبيعي أيضاً ألا تكون جميع هذه التجارب ناجحة، وهذه هي مشكلة الشعر الحديث إضافة إلى مشكلة التوصيل، فعندما أصبح الشعر الحديث يمثل الغموض المطلق فقد جمهوره لأن الشعر يقوم على التوصيل والمشاركة مع الجمهور الذي يتجاوب معه. لقد بدأ محمود درويش شاعراً واسع التواصل مع جمهوره، وبعد خروجه من الأرض المحتلة تأثر بأدونيس فمال إلى الغموض، ولكنه عاد من جديد شاعراً قادراً على الوصول إلى مستقبلي إنتاجه.

ويجمل رأيه في تطور الأدب العربي فيقول:

إن الأدب العربي قد مرّ في دورات عدة وإن لكل دورة ميزاتها الخاصة. إن الدورة الكبرى كانت دورة الأدب الجاهلي وهي أساس الأدب العربي. لقد كان للأدب الجاهلي أسطورته التي جاء الإسلام فحطمها، ولكن الأدب العربي ما لبث أن استعاد عافيته عندما خلق أسطورته البديلة وهي أسطورته

الحضارية. وهكذا فإن الشعر الجاهلي يخاطب الإنسان البدائي فينا، في حين إن الشعر العباسي لا يمكن أن يستوعبه إلا إنسان مثقف، ونحن الآن في دورة جديدة تلحّ على ربط الأدب بقضايانا وتودّه أن يكون أكثر جدية والتزاماً بالمجتمع. من هنا كان الهجوم على شعر نزار، وذلك إضافة إلى إلحاحها على دور الثقافة. إن الشاعر الحديث لا يكون شاعراً ما لم يكن مثقفاً، فالفن اليوم غدا بحاجة إلى التنظيم، والتنظيم بحاجة إلى فكر. ولذا فإن الشاعر الحديث مفكر وإلا فإنه لا يكون شاعراً، على حين كان الشاعر الجاهلي عفوياً وكان شعره فيضاً طبيعياً من النفس، وإذا كان الفن موهبة ودربة فإن الشعر الجاهلي كانت تطغى فيه الموهبة، إلا أن الحال ما لبث أن تغير، وأصبح عنصر الثقافة أو الدربة عنصراً أساسياً في الفن. والحقيقة أن المتنبي -على خلاف ما يبدو للوهلة الأولى- كان من أكبر مثقفي عصره أو دورته إن لم يكن أبرزهم.

* * *

إن مفهوم الدكتور إحسان عباس في "الدورة" مفهوم شائق ومثير ومهم دون شك، وهو بحاجة إلى نقاش ومتابعة من قبل الآخرين. وقد حاولت تقديمه من خلال فهمي له جملة، ومن خلال الملاحظات التي تجمّعت لديّ من اللقاء المشار إليه ولقاءات أخرى عديدة مع الدكتور عباس أثناء زيارته.

والحقيقة أن هذا المفهوم الهام يستطيع -كما أوضحت في اللقاء- إذا ما زاوج المرء بينه وبين آلية التغير والتطور الأدبيين، التي طرحها شيخ مدرسة براغ اللغوية جان موكاجوفسكي، أن يشرح الكثير مما مرّ به الأدب العربي عبر مختلف العصور من تغيرات.

وإذا ما رغب المرء أن يوجز هذه الآلية فإنه يمكن أن يشير إلى أن هناك معايير فنية معينة تسود فترة معينة من تاريخ أدب أمة ما، وأن هذه المعايير غالباً ما يعزو إليها الجمهور قيماً جمالية سامية يقيس بها النتاج الذي يقرؤه. والحقيقة أن هذه المعايير والقيم تغدو جزءاً مهماً من توقعات الجمهور، وغالباً ما يلتزم بها الأديب في إنتاجه حتى يكفل له استقبالاً واسعاً لدى هذا الجمهور.

ولكن هذا لا ينطبق على العباقرة والمبدعين الذين يضيقون ذرعاً بتوقعات الجمهور ويرون فيها قيوداً تكبّل إبداعهم، ولهذا نراهم يخونون هذه التوقعات فيدخلون تعديلات جديدة على المقبول من المعايير الفنية السائدة. ويحيدون عن القواعد المألوفة المهيمنة على ذوق جمهورهم الذي يقاوم بدوره هذه التغييرات في البداية ولكنه ما يلبث أن يقبلها لتغدو معايير فنية تتمتع بقيمة جمالية سامية.

وبتتابع أجيال المبدعين تتكرر العملية: معايير فنية سائدة يخرج عليها المبدعون وما يلبث أن يغدو خروجهم، المستهجن في البداية، معياراً جديداً يلتزم به الآخرون، وهكذا دواليك.

* * *

كان مفهوم "الدورة" أو "Circle" واستخدامه في التاريخ للأدب العربي من أبرز ما طرحه الدكتور إحسان عباس في لقائه، وكان من الطبيعي أن يطلق هذا المفهوم القطة بين الحمائم، وأن يثير العديد من الأسئلة لدى الحاضرين، بسبب طبيعته من جهة، وجدته من جهة أخرى. إضافة إلى كونه ما زال في طور التجريب والاختبار، وهو ما اتضح لي من خلال لقاءاتي الجديدة العديدة مع الدكتور عباس أثناء زياراته اللاحقة الأخرى لدمشق.

الدورة الجاهلية

لقد أشار الدكتور عباس إلى أن الدورة الجاهلية هي الدورة الأولى والأساسية في الأدب العربي، وإلى أنها ينبغي لذلك أن تحظى بالاهتمام الأكبر، وقد ظفرت بذلك في اللقاء، فأثير حولها الكثير من الأسئلة التي كان من أهمها مسألة تمتع الشاعر الجاهلي بالحرية التي كادت تختفي من حياة

الشاعر العربي في العصور اللاحقة، وصلة الأدب الجاهلية بالأدب الساميّ. وقد أثار أحد الحاضرين المسألة الأولى في معرض تفسيره لأصالة الشعر الجاهلي وعظمته. فقد تمتع الشاعر الجاهلي بحرية تكاد تكون مطلقة بالقياس إلى ما تمتع به الشاعر العربي في العصور اللاحقة نتيجة ارتباطه بالسلطة أو صاحب المال. ومن هنا فإن أصالة الشعر الجاهلي في رأيه تكمن أساساً في هذه الحرية الكاملة المطلقة التي كانت تسمح للشاعر حتى بتجاوز أقدم القيم الجاهلية وهي الولاء للقبيلة.

وكان رد الدكتور عباس واضحاً على هذه المسألة عندما أشار إلى أن الحرية ميزة بيّنة في الشعر الجاهلي دون شك، ولكنه أضاف بأنه لا يرى أن العصور اللاحقة قد قيّدت الشعر العربي كما نفهم من كلمة التقييد اليوم. فقد كان المهم ألا يهاجم الشاعر الخليفة أو الخلافة. ولكن ارتباط الشعر بالتكسب، واتخاذه وسيلة للرزق في العصور التالية هو الذي وضع الشاعر العربي في وضع مزر، فالكاتب كان مؤمّناً من الناحية المادية يستطيع أن يكسب قوته بسهولة ويسر من خلال عمله في الدواوين في حين إنه كان على الشاعر أن يرتزق بشعره لأنه افتقد المتكأ المادي. وهكذا فإن الشاعر الجاهلي كان متحرراً من موضوع المديح، وكانت الطبيعة والإنسان هما السائدان في شعره. والحقيقة

أن الحرية في العصر الجاهلي كانت تعني توافر حرية الاختيار للشاعر الجاهلي حتى على المستوى الفني، فهو حر في بناء قصيدته.

والواقع أن القيود فوق الأدبية السياسية والاجتماعية وغيرها، وخلافاً لما يرى الدكتور عباس ومناقشيه، كانت أقل القيود التي كبلت الشاعر العربي في العصور اللاحقة. والأمر نفسه يصدق على الشاعر الجاهلي. ولكن القيود التي كبلت الشاعر العربي في العصور اللاحقة، وشأنه في ذلك شأن الشاعر الجاهلي نفسه، هي القيود الفنية أساساً. فهي التي كانت تحد من حرية الشاعر. فحتي يرضي الشاعر جمهوره فيجيزه ويحسن استقبال إنتاجه، وحتى ينال الأعطيات ممن يستطع منحها له من هذا الجمهور، فإنه كان عليه أن ينتج فناً يتفق وتوقعات هذا الجمهور أو يتجاوزها على نحو مبدع مقنع بأهميته. ومعنى هذا أنه حتى عندما كان يفكر بالتفرد فإنه كان يظل يتحرك ضمن آفاق توقعات مستقبلي نصه وانطلاقاً منها، سواءً أكان هؤلاء، خليفة أم أميراً أم وزيراً أم حاكماً أم قائداً أم جماعة من الجماعات. وبالفعل فإن معياري الإجادة والتفوق الفنيين كانا هما السائدين في بلاطات أصحاب السلطة، وحسب الشاعر أن يجيد حتى يجد قبولاً حسناً لدى مستقبل قصيدته ويؤلب عليه الحساد والمنافسين بسبب هذه الإجادة وذاك التفوق. لقد سعى أكثر من حاكم إلى استقدام المتنبي إلى مركزه ولم يكن وراء هذا السعي غير جودة شعر

الرجل أي المعايير الفنية أساساً، على أن توظف، حتى لو كان ذلك على نحو غير مباشر، في الحفاظ على الوضع القائم الذي يكفل لصاحب السلطة أن يبقى على رأسه.

أما مسألة علاقة الأدب الجاهلي بالأدب السامي فقد تناولها تناولاً ذكياً خبيراً وقال: إننا نكبر الشعر الجاهلي لذاته، ولكننا لم نقع على ما هو أسبق منه معاً، ولأنه أساس الأدب العربي. وأضاف إن هذا الأدب يستمد وجوده من قرابته للأدب السامي فقصة الخلود، التي أثيرت في ملحمة غيلغامش، عبّر عنها الأدب الجاهلي من خلال بنائه الأسطوري المستمد من بيئته وهكذا تحدث عن لقمان والنسور. لقد فهم الجاهلي قضية الخلود من خلال لقمان ونسوره السبعة التي كان آخرها "لبد". وهكذا فإن الأدب الجاهلي أدب له مكوناته الخاصة وأصالته. وتساءل الدكتور عباس في نهاية جوابه لِمَ لم ينشأ الأدب الجاهلي في اليمن أو سواها لو كانت المسألة مسألة اتصال بالأدب السامي؟

والواقع أن على الباحثين أن ينتظروا الكشف عن التاريخ المبكر للعصر الجاهلي من خلال التنقيب الأثري الواسع في أنحاء الجزيرة وما جاورها قبل أن يقطعوا في صلة هذا الأدب بأدب المناطق المجاورة، دون أن يعني ذلك

الانتقاص من قيمة الشعر الجاهلي أو التنكر لأصالته وصلته العضوية بالحياة العربية الجاهلية.

ظهور الإسلام والدورة الأموية والنقاد العرب

وقد سئل الدكتور عباس عن موقف الناقد العربي القديم من الانكسار الناتج عن ظهور القرآن الكريم، وأجاب بأن الأصمعي عندما قال: "إن الشعر نكد بابه الشر، إذا أدخلته في باب الخير لان. ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره في باب الخير لان"، كان يقول ما يقول الدكتور عباس نفسه عن الانتقال من دورة إلى دورة، ولكن بمصطلحات أخرى.

وعندما جاء ابن سلام وقال: إن شعر حسان لم يلن بسبب الإسلام وإن كل ما ينسب إليه من شعر لين، إنما هو شعر منتحل، فإنه إنما كان يحاول أن يعزو التفاوت في شعر حسان إلى الانتحال.

ومعنى هذا أن نظرة الأصمعي، كانت نظرة أكثر قدرة على التفسير من نظرة ابن سلام ولكن مصطلحها كان مصطلحاً ضيقاً، وقد كانت محاولة لتفسير النقلة من العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي. وكما تقدم، فقد كان

لكل عصر أساطيره التي تغذي شعره، وعندما جاء الإسلام بأشياء جديدة كان لا بد من فترة تحول.

وعندما سئل عن العصر الاموي أجاب بأن الدورة الأموية كانت دورة استعادة للدورة الجاهلية، وأن الشعر في العصر الأموي هو أكبر تمثيل للظاهرة المسرحية عند العرب، ففي الجاهلية كانت المسرحية المهمة في حياة العرب هي المنافرة أو المفاخرة أي المبارزة التي كان يشارك فيها الشعراء والرجاز والخطباء.

وفي العصر الأموي كان الناس ينظرون إلى المقاييس الجاهلية بسبب الحاجة التعليمية، ولهذا فإن العصر الأموي كان على ما نحو ما عودة إلى الجاهلية.

وهكذا استمرت روح المنافرة ولكن بشكل يسمح به الإسلام، وعلى نحو هزلي، فكانت النقائض. وقد ساعد على هذا الصراعات الحزبية التي تأججت طوال العصر الأموي، والحقيقة أن عوامل الصراع كلها تجتمع في هذا المنظر المسرحي الكبير الذي كان يشهده المرء في المربد وسواه.

ولهذا كانت بنية القصيدة الأموية بنية مفتعلة حائرة لم تجد نفسها بعد، وهكذا حار الشاعر الأموي واضطرب فنياً، والأمثلة على ذلك عديدة (جرير في رثائه لزوجه وعمر بن أبي ربيعة والكميت وغيرهم).

دورة الشعر الحديث وصلتها بالموشح

وكذلك سئل الدكتور عباس عن دورة الشعر الحديث وعما إذا كانت عابرة، كالموشحات، ننتهي منها بعد حين، ويعود الشعر إلى ما كان عليه من قبل. فقال: إن الموشحات ظاهرة مهمة ولكنها لم تنته أو تمت، فما زالت جزءاً أساسياً من شعرنا وتقاليدنا الشعرية، ونحن نحب الموشحات لأنها جزء من غنائنا، وتقسيمات الشعر المهجري تقسيمات موشحية. وعلى الرغم من ذلك فإن دورة الموشح تختلف عن الدورة الجديدة، وهذه الأخيرة أي دورة الشعر الحديث سوف تنتهي في يوم إلا أنه لن يكون قريباً على أي حال، وستتطور باستمرار.

وأضاف أن شاعراً يتقمص روح الأمة العربية ويكتب قصيدة عمودية يستطيع إعادة الحياة للقصيدة القديمة، ولربما وجدنا أنفسنا أمام شكل من أشكال التعايش بين الشعر الجديد والشعر القديم. لقد عشنا في ظل الشعر

الموزون المقفى فترة طويلة ولذلك عندما أتى السياب يخفف من رتابة الوزن والقافية سررنا به وانسجمنا معه، ولكن دون أن ننكر بسبب ذلك شاعرية بدوي الجبل أو الجواهري.

وأما عن قصيدة النثر فقال إنه يرى فيها ما يراه الفارابي الذي يصف الشعر بأنه كلام موزون، وقال بأنه عند العرب مقفى وما سواه يتبع ما يمكن تسميته بالأقاويل الشعرية. وهكذا فإن القصيدة النثرية هي من باب الأقاويل الشعرية، لأنها تحمل كل عناصر الشعر لا وزنه ولا يمكن التصدي لها كقصيدة شعر.

ومن الطبيعي أن جواباً كهذا ما كان يرضي الشعراء المحدثين الذين لا يرون الحداثة مجرد زي كما يقول الصديق محمد عمران، لأنها حركة ترفض الذي يقفون، تتجاوزهم، ثم لا تلتفت إلى وراء.

ولكن الدكتور عباس صديق قديم لإيقاع التفعيلة وصديق أقدم لإيقاع الشعر الجاهلي كما يضيف الأستاذ عمران. وهو وفق هذا وذاك مؤمن بالتوصيل، موقن بأن التجربة الجمالية تظل تجربة موجودة بالقوة ما لم تستهلك وتتحول على يد متذوقها إلى تجربة موجودة بالفعل، ولأنه صاحب بصيرة نافذة فإنه أشفق على التجديد الذي يحول بين هذا الشعر وبين الوصول إلى القارئ. وليس من السهل على المرء ألا يتفهم وجاهة خوفه هذا على الشعر الحديث.

شؤون وشجون ذاتية

من المعروف عن الدكتور إحسان عباس امتداد اهتماماته ونتاجه على مساحة واسعة من الحقول المعرفية المتصلة بالثقافة العربية، قديمها وحديثها. فقد مارس كتابة الدراسة الأدبية، والتاريخ الأدبي، والسيرة الأدبية، والنقد الأدبي النظري والتطبيقي، والتاريخ، إضافة إلى ممارسته للتحقيق والترجمة الأدبية والنقدية وغيرها.

وهو لم يقتصر في اهتماماته وإنتاجه، وتدريسه، ومشاركاته الثقافية العامة، على عصر أو عصرين، بل أسهم في دراسة مختلف العصور الأدبية. والغريب أن معظم ما أنتجه تحوّل بشكل أو بآخر إلى صوّة غدت منطلقاً، أو مقياساً، أو دليلاً لما تبعه من إنتاج، وحسب المرء أن يشير هنا إلى دراساته الأندلسية أو تاريخه للنقد العربي الكلاسي، أو دراسته عن السياب والشعر المهجري وغيرها، ويتساءل بعدها هل يمكن لدارس هذه الموضوعات أن يبدأ إلا من حيث انتهى الدكتور عباس، إلا إذا أراد أن يكون ما يقوله معاداً مكروراً. ومما يلفت نظر المتتبع لنتاجه أن الدكتور عباس قد حافظ فيه على مستوىً رفيع جداً من تقاليد البحث العلمي وأصوله، لا يسع المرء إلا أن يشير إليه، ويدعو

إليه، في وقت تشهد فيه الدراسات العربية الحديثة انحداراً من درك إلى درك، لسنا بصدد الحديث عن أسبابه الآن.

ولهذا كان من الطبيعي أن يثير هذا المدرج الواسع -ما سماه الدكتور حسام الخطيب- الذي ينظم أعمال الدكتور عباس، فضول الحاضرين، ورغبتهم في معرفة سرّه. وهكذا تحول اللقاء في نهايته إلى تضاعيف الأمور الذاتية فأتاح للمشاركين فيه فرصة نادرة حقاً للاطلاع على صفحات من السيرة الذاتية الفكرية لعميد الأدب العربي الثاني.

وبدأ حديث الشجون بإشارة الدكتور عباس إلى أن هذا المدرج الواسع كان جنايته على نفسه، لأنه تخصص في ثقافات متنوعة النشأة، وعلى مستويات عدة كالتاريخ اليوناني والروماني. (فمن المعروف أن الدكتور عباس من أوائل من ترجم كتاب **فن الشعر** لأرسطو من العرب المحدثين، وعن اليونانية مباشرة)، والفلسفة الأخلاقية حتى إمانويل كانط، والأدب الإنكليزي الحديث الذي عكف عليه لمدة تجاوزت ثلاث سنوات لا يقرأ فيها سواه. وقد غلب عليه ماكس فيبر فترة من الزمن فقرأ جميع ما كتبه، وتمثّله، وكذلك كان شأن شبنغلر الذي أرّقه لسنوات عندما كان يعاني من مشكلة انهيار الحضارة.

ثم أضاف أن "الشباب شعبة من الجنون" وأنه يرى أنه ينبغي، إذ وهبه الله كل هذه الكفايات، أن يمضي إلى ميدان النقد الأدبي، ما دام يرى فيه تعبيراً عن تجمع هذه الثقافات، وإلى ميدان الدراسات الأدبية لأنه يجمع بين كل هذه الدراسات الإنسانية، وهكذا كان شيخ المنظرين في حلقات القاهرة، يخرج على من حوله، كل آن وآخر، بنظرية جديدة، ولكن أدركه شعور مفاجئ بأن هذه النظريات باطل الأباطيل، فاتجه إلى النقد التطبيقي، وابتعد عن النظرية النقدية، وكان أكبر مؤثر في نقده التطبيقي في تلك الفترة جيمس فريزر صاحب كتاب "**الغصن الذهبي**" وكارل غوستاف يونغ صاحب الأنماط الأولى، واللاشعور الجمعي، وتلميذ فرويد، دون أن يعني ذلك التطبيق الآلي لنظرية أي منهما.

وتابع قائلاً:

"كنت أعلق أهمية كبيرة على تطور الشعر الحديث، وواكبته من البداية وكتبت فيه دراسات عديدة، كانت في حينها مرضية إلى أن وقعت في حيص بيص من أمري، عندما أصبحت لا أستطيع التفاعل مع الشعر الأجد، لقد تابعت الشعر الحديث منذ مراحله الأولى، وأخذت أقرأ كل ما يقع تحت يدي منه، حتى ازداد الانقطاع، واستحال التواصل. وكتبت كتاب **اتجاهات الشعر العربي المعاصر**، فهوجمت هجوماً عنيفاً دون حق، وخاصة في منهجي،

ففقدت الثقة بنفسي، وهكذا أقلعت عن الكتابة فيه نتيجة عاملين، فأنا مخفق من جهة، ولا أستطيع الحكم عليه من جهة أخرى، ولهذا توقفت عن النقد".

إضافة إلى كل ما تقدم كانت أحداث لبنان المؤسفة التي حالت بينه وبين التأليف، فانصرف عنه إلى التحقيق، وكان آخر ما ألف كتاب **اتجاهات الشعر العربي المعاصر** (١٩٧٨) وكتاب **ملامح يونانية في الأدب العربي** (١٩٧٧)، وقد أنجزا في برنستون عندما كان أستاذاً زائراً في جامعتها لعامي ١٩٧٥-١٩٧٧.

وذكر بحزن أنه لا يستطيع الآن أن يخط أية فكرة جديدة نتيجة السنوات العشر التي عانى منها ما عانى أثناء وجوده في بيروت، وأنه يود أن يرتاح لبعض الوقت بعد أن تقاعد من عمله في **الجامعة الأمريكية في بيروت**.

وقال أيضاً إن التأليف عنده معاناة، وليس أمراً سهلاً، و"ما كنت لأستطيع التركيز في بيروت" وذكر أنه اضطر عقب انتهائه من كتابه عن السياب إلى السفر إلى إنكلترا للاستشفاء.

أما عن كتابه **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، منذ القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري الذي أخرجه عام ١٩٧١، فقال إنه كان حصيلة عمل استمر خمسة عشر عاماً، وإنه لم يشرع في الكتابة فيه إلا بعد غياب أستاذ النقد في الجامعة الأمريكية، وتكليفه تدريس المادة. وأضاف أنه كتب فيه أول ما كتب

ما يقرب من ثمانين صفحة بعد تدريسه لمادته، وما لبث أن تابعه إلى أن أكمله. وهو يعكس ثقافته في النقد العربي القديم، وموقفه النظري المستمد من اطلاعه على النقد الحديث.

وعندما سئل عن ترجماته وتوقفه عن متابعتها أجاب: "إنني أصبحت في نظر الناس أكبر من أن أترجم، وهذا آفة، لأن الترجمة متعة شديدة" وكم كان بودي أن أترجم على سبيل المثال **جبل السحر**، ولكنهم الناس.

* * *

والحقيقة أن المتأمل في هذه الإشارات الشائقة إلى جوانب من سيرة الدكتور إحسان عباس الذاتية التي أفضى بها في اللقاء يتأثر أيما تأثر بهذا الغنى ليس في عمل الدكتور عباس أو إنتاجه أو اهتماماته وحسب، بل في روحه ونفسه أيضاً، وفوق هذا وذاك بالتواضع الجم الذي ينم عن نفس عظيمة تؤمن بالإنسان القابع فيها وتعترف بكل ما فيه: نقاط ضعفه قبل نقاط قوته، وإخفاقاته قبل نجاحاته، ومحدوديته قبل طموح تطلعاته.

إن الدكتور عباس "أستاذ" من طراز رفيع حقاً، وعظمته تكمن أساساً في أنه أستاذ في كل شيء -في محاضراته، وفي دراساته، في مقالاته وفي علاقاته- في حياته جملة، وإن نسيت فلن أنسى كيف كان يخاطر بحياته عندما كان

يأتي إلى دمشق من بيروت كل أسبوع في العام الدراسي ١٩٧٣-٩٧٤ وبخاصة أثناء حرب الاستنزاف وجبل الشيخ ليلقى طلبة دبلوم الدراسات الأدبية في كلية الآداب –يقرؤون عليه النقد الحديث والشعر العربي الحديث، وكيف كان يبدد مخاوفهم عليه، بابتسامة تفيض بالحب، ويخاطب كلاً منهم باسم تحبب خاص به، فيجعل من لقاء الساعتين معه -الذي غالباً ما كان يمتد- واحة خصب تفيض علماً وحكمة وبياناً- تفيض إنسانية آسرة.





شكري فيصل

(١٩١٨-١٩٨٥م)



شكري فيصل المتذوق الأمهر[1]:

مقاربته للأدب

١٩٨٦

أمارة وفاء

اسمحوا لي بادئ ذي بدء أن أحيي "اتحاد الكتاب العرب" ممثلاً برئيسه، وأعضاء مكتبه التنفيذي، على هذه البادرة النبيلة التي تشي بالكثير من الوفاء لعضو بارز من أعضاء الاتحاد – الوفاء، هذه القيمة التي تخضع في أيامنا هذه إلى قسط كبير من الترشيد Rationing، والتي نفتقدها في مختلف جوانب حياتنا، والثقافي منها على نحو خاص.

(١) إشارة إلى وصف ت. س. إليوت لإزرا باوند بـ "الصانع الأمهر" عندما أهداه قصيدته الشهيرة "**الأرض اليباب**".

والحديث عن الوفاء في جلسة مخصصة لتأبين شكري فيصل ليس استطراداً تمليه اللياقة، لأن المرء إذا ما أباح لنفسه أن يغض طرفه عن كل ما قدمه الرجل، وهو أمر لا يجرؤ عليه إلا مكابر أو جحود، فإنه لن يستطيع أن يغض طرفه عن سمة واضحة وضوح الشمس فيه، هي وفاؤه الذي كان دينه ومعتقده حتى إنه طبع رؤيته للعالم. وغني عن القول إنه ترك بصمات واضحة على آثاره التي تبقى من أهم ما تركه للأجيال القادمة التي طالما أرقه مستقبلها.

ويتجلى هذا الوفاء أوضح ما يتجلى في مظهرين متصلين بعضهما ببعض هما:

١. إشاراته التي لا يفتأ يكررها في مقدمات أعماله[*] لأساتيذه ولغيرهم مما ساهم على نحو أو آخر في إخراج هذه الأعمال إلى النور، لا يغادر في ذلك حتى عمال المطبعة الذين نضدوا له حروف كتبه.

---

[*] يلاحظ المرء بأسف شديد هذه الأيام أن كثيراً من مقدمات الكتب الجامعية التي كانت رسائل جامعية -للماجستير والدكتوراه- تخلو من إشارة واضحة إلى أصولها، أو من تقدير لائق بمن أشرف عليها. وكأن هذه الإشارة، وذاك التقدير ينتقصان من قيمة ما فيها، أو مكانة مؤلفيها، ناسين أن قيمة أية رسالة جامعية تكمن -إضافة إلى جهد صاحبها- في منزلة الشيخ الذي قرأ صاحبها عليه.

٢. أنه كان يبدأ في كل موضوع يطرقه من النقطة التي انتهى إليها الآخرون، وليس من نقطة الصفر، كما هو شأن الكثيرين من باحثي هذه الأيام الذين يجدون غضاضة في أن يعودوا إلى إسهامات غيرهم، ويراجعوا ما فيها ويستوعبوه ويكملوا بعد ذلك الشوط الذي بدأته، ولكنهم بالمقابل يدفعون ثمن ذلك تكراراً عقيماً، وجهداً بعيداً عن الجدوى، وسعياً محدود الثمار، وزرعاً ممجوج الأكل.

ورغم ذلك فإنه –رغم حرصه الشديد هذا على الوفاء للآخرين ممن سبقوه إلى دراسة أية ظاهرة أو قضية أو موضوع– لم يكن ليكتفي بمتابعة خطواتهم، والأنس بالآفاق التي حاولوا استشرافها، والقناعة بها. إذ إنه كان يحاول دائماً أن يتجاوزهم التجاوز الإيجابي الذي يعلم أن العصر الذهبي [١] للإنسانية لم يمض **بعد** – **كما** ألح على ذلك أوفيد، وأنه قابع في نقطة ما، قريبة أو بعيدة من هذا التيار الجارف – الزمن، وأن السعي والجهد وحدهما الكفيلان ببلوغها.

---

[١] إشارة إلى قصيدة "أوفيد" **تحولات** التي يرصد فيها انحدار الزمن من عصر ذهبي إلى عصر فضي، فنحاسي، فحديدي، فعصر صلب فتاك. وانظر نص القصيدة في: د. حسام الخطيب، ***الأدب الأوربي: تطوره ونشأة مذاهبه*** (دمشق، ١٩٧٢)، ص ص (٤٤-٤٦).

خارجي يبحث عن هامش الأفضل

والواقع أن وراء مسعى شكري فيصل في مختلف الآفاق التي ارتادها تأليفاً وتحقيقاً، كان ثمة فكر ناقد على درجة سامية من الدقة والمرونة والمقدرة، **يؤمن بأن في كل عمل إنساني هامشاً للتطوير والتحسين وأن من واجب المرء أن يوجه مسعاه وجهده لتحقيق هذا الهامش.** ولعل هذا -فيما يبدو لي- كان سبب كون شكري فيصل في حياته كلها، ورغم كل ما يديه من لطف ورقة وتهذيب ودماثة، الخارجي the Outsider الذي لا يرضى بوضع قائم على أنه الوضع النهائي، الوضع المثال والمآل، إذا ما استعرنا عبارة الدكتور أحمد عروة.

نعم كان خارجياً في الجامعة وفي المجمع وغيرهما، ليس لأنه يحب التفرد، ولو أحبه لغفرنا له، ولكن لأنه كان يعتقد بوجود هذا الهامش الذي أشرت إليه، ولأنه كان دائماً يحاول بلوغه، وإني لأشهد، كما يشهد غيري، أنه كثيراً ما بلغه.

وربما كان من أهم إجراءاته التي يستخدمها في مسعاه هذا:

١- أنه كان يراجع ما سبق إليه ويحاول استيعاب ما فيه من مؤشرات إيجابية وسلبية.

٢- وأنه كان بعد ذلك ينقده ما وسعه علمه وفكره ووقته وقدرته.

٣- وأنه يمضي بعد هذا يقدم البديل، النموذج، يمهد السبيل به للآخرين.

٤- وأنه في النهاية لا يفتأ يراجع هذا البديل بين الحين والآخر، يعاوده بالتنقيح والإضافة واستكمال النواقص، وسد الثغرات، ينظر إليه بعين ناقدة كما نظر من قبل إلى عمل غيره، باحثاً عن الأفضل دوماً يتجاوز به حتى نفسه، وقليل من هم كذلك.

إشارتان:

لست أريد أن أمضي طويلاً في هذا الحديث النظري عن شكري فيصل، ولا سيما أن الرجل، وأشرف بانتسابي إلى مدرسته، كان لا يطيقه، ولذلك نراه غالباً ما يمضي عنه راغباً إلى التطبيق، إلى النصوص ومواجهتها. فكم كانت تروقه، وكم كانت حصيلتها تروق الآخرين ممن أتيح لهم حظ مواجهتها، في محاضرة، أو لقاء، أو برنامج إذاعي، أو مرئي، أو في مقابسة، أو في كتاب. ولهذا فإني سأنتقل إلى إشارتين مقتضبة وموسعة قليلاً، أوجز في الأولى إذ سيكفينيها صديق لزم شكري فيصل على مدى عقود عدة، وأتوسع قليلاً في الثانية إذ كانت ألصق بمسعاي في الجامعة وخارجها.

١- فأما الإشارة الموجزة فهي إلى عمل شكري فيصل في التحقيق[1]. إن من يتتبع هذا العمل منذ بداياته في **الخريدة**، إلى **ديوان أبي العتاهية**، إلى **ديوان النابغة**، إلى **ابن عساكر**، سوف يلاحظ ما ذكرته بوضوح. ورغم أن المرء لن يجد على وجه الإجمال إلا عبارات الإطراء والتهنئة والتشجيع يسوقها إلى محقق **الخريدة**، إلا أنه لا يسعه إلا أن يبحث عن عبارات أبلغ، يحاول أن ينصف بها الرجل، عندما ينظر في **ديوان أبي العتاهية**، ويخونه سعيه عندما يأتي إلى **ابن عساكر**، الذي بلغ فيه شكري فيصل، ومن ساعده من تلامذته

---

[1] تشمل تحقيقات شكري فيصل الكتب التالية:

١) ***مقدمة المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام*** (١٩٥٢).
٢) ***خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني*** (١-٣) (١٩٥٥-١٩٦٤).
٣) ***أبو العتاهية أشعاره وأخباره*** (١٩٦٤).
٤) ***ديوان النابغة: صنعة ابن السكيت***، (١٩٦٨).
٥) ***خريدة القصر وجريدة العصر "قسم شعراء الشام"*** (١٩٦٨).
٦) ***تاريخ مدينة دمشق: عاصم – عائد*** (١٩٧٧).

وانظر أيضاً: معهد المخطوطات العربية، ***أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه***، الكويت، ١٩٨٥، وهو نص التقرير الذي وضعته لجنة مختصة في بغداد عام ١٩٨٠ بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وكان لشكري فيصل يد كبيرة في صياغته وإعداده.

شأواً بعيداً، يمكن أن يعتبر بحق مفخرة للمحققين العرب، الذين يتكئون -في هذا العصر- على غيرهم حتى في مضمار دراسة ثقافتهم وأدبهم.

ورغم نشوة الفرح الغامر بهذا الإنجاز العظيم الذي كان حصيلة عمل دؤوب لسنين طويلة، فإن الغرور لم يداخله. وهكذا وجدناه يختم مقدمته المؤثرة قائلاً:

"وبعد، فما أكثر ما يخالط أعمال الإنسان أحياناً من هوى، وما يداخله من حظ النفس، وما أبعد ما يتطلع إليه دائماً من آفاق... فلنسأل الله سبحانه، ضارعين، أن يباعد بيننا وبين الأهواء، وأن يسقط من نفوسنا حظ نفوسنا حتى يبقى العمل خالصاً لوجهه، وأن يمدنا بالعون على تحقيق ما نتطلع إليه ليكون ذلك وفاءً لبعض حقه علينا... في تراثنا الذي نجل، وتاريخنا الذي نقدر، ومستقبلنا الذي نرجو.

وحين نراجع الآن أكداس التجارب [*]، وحين ننظر في صور الأصول وخطوطها، لا نملك إلا أن نتوجه إلى الله سبحانه بالشكر على ما كان من تيسيره وتوفيقه، والضراعة إليه أن يقسم لنا من الخير فيما نستقبل أضعاف أضعاف ما قسم لنا فيما مضى، وأن يجعل حظنا من التوفيق

[*] وهي أكداس بالفعل كما يعرف كل من واكب هذا العمل من قريب أو بعيد.

لما فيه مرضاته أطيب الحظوظ، وهو الهادي إلى سواء السبيل. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]" [١].

٢- وأما الإشارة الموسعة إلى حد ما، والمتصلة بمسعاي، **فهي دراسة الأدب العربي وتدريسه على الوجه الأنجع**. والحقيقة أن تتبع مسعى شكري فيصل في **هذا الاتجاه مثير وشائق ودال؛** مثير بوقائعه، وشائق بتطوره، ودال بتضمناته.

حسّ نقدي مبكر في *"مناهج الدراسة الأدبية"*:

لقد بدأ هذا المسعى برسالة شكري فيصل لدرجة الماجستير، والتي قدمها إلى كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول يومئذ، وجامعة القاهرة الآن، ونوقشت في الأول من تموز عام ثمانية وأربعين من قبل لجنة برئاسة الأستاذ المشرف أمين الخولي، وعضوية الأستاذين مصطفى السقا ومحمد خلف الله أحمد، وكانت بعنوان:

"مناهج الدراسة الأدبية: عرض ونقد واقتراح" [٢]

---

[١] شكري فيصل (محقق) ***تاريخ مدينة دمشق: تراجم حرف العين المتلوة بالألف من عاصم – عايذ،*** (دمشق، ١٩٧٧)، ص (٣٠).

[٢] ط٣، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٣.

هذه الرسالة التي وقفها على مراجعة مختلف النظريات التي تصدت لدراسة الأدب العربي: النظرية المدرسية، ونظرية الفنون الأدبية، ونظرية الجنس، ونظرية الثقافات، ونظرية المذاهب الفنية، والنظرية الإقليمية، ونقدها، ليخرج على الناس في نهايتها بمنهج جديد. وربما كان من أشد الأمور إثارة وأبلغها دلالة، أن الرسالة مكرسة، في جانب معتبر منها، لنقد آراء الأستاذ المشرف على إعدادها. ولنصغ إلى شكري فيصل يحدثنا عن لقاءاته بأستاذه المشرف وإلى ما انتهت إليه:

"ووجدتني في خلال ذلك ألقى أستاذي الأسبوع بعد الأسبوع والمرة بعد المرة، فأتحدث معه، وأستمع إليه، وأناقشه، وأفيد منه، ووجدتني بعد ذلك أرتضي منه شيئاً وأخالفه في شيء، وأحاوره في مسألة وأجادله في غيرها، حتى انتهى بنا الأمر إلى شيء كبير من خلاف في الرأي وتباين في الطريق... وصبر الأستاذ الخولي على هذا الخلاف صبر المطمئن إلى رأيه من نحو، والمطمئن إلى صاحبه من نحو آخر، واصطبرت كذلك اصطبار الواثق بنفسه والواثق بأستاذه أنه لن يخلفه أول الخطوط التي التقيا عندها واتفقا فيها، لأنها أول الخيوط التي تقوم عليها الحياة، والتي لا تقوم حياة إلا بها... **وذلك هو إتاحة الحرية في الرأي أبعد الحرية، وإتاحة المخالفة في النظرة أشد المخالفة، والاعتماد على**

أن الغاية من الإشراف ليست تكرار النماذج المتماثلة، وإنما هي إحياء العناصر الشخصية وتنمية الفردية الذاتية، والبلوغ بالقوى إلى أقصى غاياتها وأبعد مراميها".

"وكذلك ظلت هذه الرسالة أشهراً تنتظر المناقشة... ولكن أسبوعاً من هذه الأشهر لم يخل من حديث فيها ونقاش حولها... ولم يكن من سبيل إلى أن ألتقي مع أستاذي في الرأي... ولم ننته إلى تطابق، ولكن ذلك لم يضرنا في شيء، فلم يكن هذا التطابق بين الأستاذ المشرف وصاحبه هو الذي ينشده من إشرافه أو يسعى إليه."

"ولم يكن هذا التطابق هو الذي أنشده كذلك، ففي أعماقي تأبٍّ عنيف على كل ما لا أطمئن إليه، لعل مصدره طفولة شاقة أبى عليها والدها إلا كل شاق عسير تسعى إليه بنفسها وتبلغه وحدها...".

"وكانت مناقشة الرسالة في اليوم الأول من شهر تموز (يوليه) ٤٨، ظاهرة طيبة من ظواهر الحياة الفكرية، تستحق من هذا النحو، الإشارة إليها، والإشادة بها، وكان تقديم الرسالة صورة قوية حية للعلاقة الحرة التي يجب أن تسود ما بين المشرف والطالب... فقد قدمها الأستاذ المشرف وهو مخالف لها مخالفة تقدير، وناقشها كذلك، لا مدافعاً

عنها ولا ملتمساً لصاحبها العذر، بل مخالفاً ملحاً في هذا المخالفة، عنيفاً فيها شديد العنف، لا يغضي عن جزء في ذلك ولا كل.

وبذلك كانت الرسالة تقليداً جديداً من تقاليد الإشراف، لم أملك – وأنا أقدم الرسالة- إلا أن أنحني له... لهذه الحرية التي يبيحها ولهذه المخالفة التي يتيحها، ولهذا البعد الذي يرتضيه... مؤمناً أن الذين يعملون معه يجب أن يصدروا عن ذوات نفوسهم، وخاصة تفكيرهم، ونظرتهم التي كونوها لأنفسهم عن الأدب، وعما وراء الأدب في الكون والحياة"[1].

وهكذا كان، إذ صدر شكري فيصل في رسالته هذه، عن تفكيره الخاص به، ونظرته التي كونها لنفسه عن الأدب، وعما وراءه في الكون والحياة. ولكنه في عرضه لما عرض من هذه النظريات وفي نقده لها، ومن ثم اقتراحه لمنهجه الجديد، **إنما انطلق من طبيعة الأدب العربي نفسه، وهو منطلق سليم، إذ إن طبيعة المادة هي التي تحدد النحو الأمثل لدراستها.** والمنهج الجديد الذي طرحه في خاتمة مواجهته لمشكلة دراسة الأدب العربي "إنما يستجيب -كما يذكر- **لواقع الأدب العربي،** هذا الأدب العريض الذي طوى شعوباً متباينة،

---

[1] المرجع السابق، ص ص (ط- ك) من المقدمة.

وسار أقاليم كثيرة"[1]. يشير شكري فيصل إلى **ارتباط منهجه المقترح بطبيعة الأدب العربي فيقول:**

"ولم يكن غرض هذه الدراسة أن تعنى بتاريخ الأدب بوجه عام، تعرض كل النظريات التي تنتظمه، والمناهج التي تسوده، وآراء النقاد الكثير منذ بدأت الدراسات في أوروبا مع النهضة الحديثة، ولكن غرض هذه الدراسة كان أن تعنى بالأدب العربي وحده، فهذا الأدب يختلف عن الآداب الأخرى في مادته ويختلف عنها في واقعه الزماني والمكاني والفني، وهو لذلك لا تصلح فيه مناهجها، **لأن المنهج لا يمكن أن يكون شيئاً منفصلاً عن واقع المشكلة وعن مقتضياتها، ولذلك كان لا بد له من منهج أصيل ينبعث عن واقعه ويتجاوب مع حاجاته، ويلتئم مع هذه السعة في الزمان والمكان التي كانت من أبرز خصائصه"**[2].

"وكما كان هذا الأدب العربي كلاً لا تستطيع العصور وحدها أن تحتجزه، ولا الأقاليم وحدها أن تتوزعه، ولا الأنواع الأدبية أن تستأثر به، وإنما هو هذا الكل الذي تملأ جنباته هذه الطوابع المتقاربة، وتنطوي

---

(1) نفسه، ص (٢٢٤).

(2) نفسه، ص (٢٤١).

كل أجزائه على هذه الروح الواحدة، وتتشابك جداوله وفروعه، ولكنها تلتقي كلها في النبعة التي تصدر عنها والحوض الذي تنتهي إليه. كذلك كان لا بد لمنهج هذا الأدب الذي ننشده أن يكون هذا الكل الذي تذوب فيه الدراسات الإقليمية والفردية والزمانية لتنبع عنها هذه الدراسة الأخيرة التي ترسم مذاهبه وتخط مدارسه وتدل على الألوان الفنية التي غلبت عليه"[1].

"وكما لم يكن هذا الأدب العربي ثمرة البيئة وحدها، ولا خلاصة العصور ولا نتاج الأشخاص فحسب، وإنما كان هذا المزيج المتشابك من ثمرة البيئة، وطوابع العصر وآثار الشخصية الفردية بما تطبع الأدب وما تضيف عليه – كذلك لن يكون منهج دراسة هذا الأدب منهجاً واحداً ضيقاً تقتضيه البيئة أو تستأثر به العصور أو تتحكم فيه الحياة الشخصية، وإنما هو هذه الحقيقة التي تجتمع أجزاؤها من هذه الأشياء جمعاً حياً.. أعني أنها لا تكون أجزاء متحكمة مسيطرة، وإنما تلتف وتتمركز **لتحقيق الغاية من الدرس الأدبي"**[2].

[1] نفسه، ص (٢٢٧).

[2] نفسه، ص ص (٢٢٧-٢٢٨).

ولكن ما الغاية من الدرس الأدبي أو النقد؟

إن دارس اللغة (الـ Linguist، أو اللغوي أو اللساني) يسعى من وراء دراسته هذه إلى وضع يده على النظام اللغوي (أو الـ Langue) الذي يحكم الأشكال المختلفة للممارسة اللغوية (أو الـ Parol) في لغة ما. ولا يتحقق له ذلك إلا من خلال دراسة الإنشاء اللغوي الفردي على مختلف المستويات: المعجمي Lexical، والصوتي phonetical، والدلالي Semantic، والتركيبي Syntactical وغيرها. ودارس الأدب – ذاك الإنشاء اللغوي الذي تستخدم فيه اللغة على نحو خاص، وتسود فيه الوظيفة الجمالية [1] Aesthetic Function على باقي الوظائف – يسعى كذلك للوصول إلى النظام الأدبي الذي يحكم إنتاج الإنشاءات الأدبية الفردية.

وطريقه في ذلك طريق عالم اللغة أي البدء من تفحص الإنشاءات الأدبية الفردية، أي النصوص الأدبية الفردية.

---

[1] انظر مارك إ، سوينو "الوظيفة الجمالية، المعيار والقيمة كحقائق اجتماعية "، ترجمة عبد النبي اصطيف، *المعرفة*، السنة العشرون، العدد (٢٣٠)، نيسان، ١٩٨١، ص ص (٢٢٤-٢٢٩).

وشكري فيصل وبحسه السليم المبكر جداً، ونظرته النافذة إلى طبيعة الممارسة النقدية، أصر منذ عمله الأول على البدء من دراسة النصوص، الإنشاءات الفردية، وذلك بغاية الوصول إلى النظام الأدبي الذي يحكم إنتاجها. وهكذا نراه يكتب في الحديث عن منهجه المقترح:

"هدف الدراسة الأدبية إذن أن ننتقل من تعرف أدق الخصائص الفردية لكاتب أو شاعر، إلى الخصائص المشتركة التي تربط بين جماعة من الأدباء والشعراء... أعني أن هدفها أن تتوج هذه الدراسة بالتعرف إلى المدارس الأدبية والمذاهب الفنية التي سادت الأدب العربي على تطاول العصور"[١].

وبعبارة أخرى إن المنهج الذي يود شكري فيصل أن يصطنعه:

"يقوم على الانتقال من الفردي إلى العام، ومن الجزئي إلى الكلي.. فالدراسة الفردية هي أصل بنياننا الأدبي، كما تكون الأحجار المبعثرة هي أصل هذا الحائط القائم، وعلى مقدار ما عند هؤلاء الأفراد من

[١] انظر شكري فيصل، ***مناهج الدراسات الأدبية***، ص (٢٢٢).

تقارب وما بينهم من تجاوب، تتكون هذه الدراسة، كما تتكون إقامة هذا القوس من هذه الأحجار التي يكمل انحناء بعضها انحناء بعض آخر"[١].

وإذا ما حوّلنا هذه اللغة المنمقة، التي قد تصرف القارئ إليها أكثر مما تصرفه إلى تضمناتها، **إلى لغة نقدية معاصرة،** فإننا نستطيع أن نقول إن شكري فيصل يودنا أن نبدأ **بالنقد الأدبي التطبيقي، بالتفسير، بدراسة الإنشاء الأدبي الفردي، وأن نقوم بممارسة هذه الفعالية المركبة الفنية، وعيننا على هدف أبعد هو الوصول إلى نظام أدبي خاص بهذا الإنشاء [٢]، أو نظرية أدب داخلية، أو شعرية أو poetocs[٣] خاصة بالنصوص التي كانت موضع دراستنا.**

---

[١] نفسه، ص (٢٣٢).

[٢] انظر د. عبد النبي اصطيف، في المصطلح النقدي: نظرية الأدب – مقدمة"، *البعث* (دمشق)، العدد (٦٨٥٢)، ١٩٨٥/٨/٢٥، ص (٨).

[٣] من أجل مصطلح الشعرية انظر:

1) Tzvetan Todorov,

Introduction to Poetics, Translation from the French by Richard Howard, Introduction by Peter Brooks, University of Minnesota Press, Minneapolic, 1981.

2) O. Ducrot and T. Todorove,

Encyclopedic Dictionary of the Sciences of Languages, Translated by C. Porter, B. Black well, Oxford, 1981, pp, 78-84.

والحقيقة أن هذا المصطلح في النقد الأدبي المعاصر يشير إلى مستويات ثلاثة في النظام الأدبي أو نظرية الأدب الداخلية:

١- مستوى الإنتاج الأدبي الخاص بأديب ما.

٢- مستوى الإنتاج الأدبي الخاص بمدرسة أدبية ما.

٣- مستوى الإنتاج الأدبي الخاص بأمة ما.

وشكري فيصل واعٍ تماماً بهذه المستويات الثلاث وها هو يكتب في موضع آخر:

"إننا نهدف من هذه البداءة الفردية أن **نحدد مكان الشاعر في العالم الفني أن ندل على سمته، أن نرسم منحاه البياني**. نفعل ذلك **مع كل شاعر، ونعنى به في كل أديب، حتى إذا اجتمعت لنا هذه النماذج الفردية الكثيرة، هذه الخطوط البيانية المختلفة، أمكن لنا أن نلم ما ائتلف منها، وأن نجمع ما تقارب في مجموعات ينتظمها إطار ويوحدها أفق، ويتكون عنها مدرسة أدبية – جمعاً لا يخطئه التوفيق ولا يتحكم فيه الهوى ولا تتصرف به مواصفات الدراسات السابقة**.. ثم يكون لنا بعد ذلك أن ننتقل فنشهد التفاعل الذي يكون بين الفرد والفرد في المدرسة الواحدة، **والتأثير المتبادل الذي يكون بين مدرسة ومدرسة**، وأن

نحقق هذه الموازنات الرائعة، وهذه الدراسات الخصبة، وهذا النفاذ العميق إلى بواطن الأشياء، وحينذاك نستطيع أن نحقق للدراسة الأدبية أغراضها، وأن نضمن لها غاياتها، وأن نوفر لها كل ما يجب أن نوفر من اللذة والحقيقة، ومن المتعة والفائدة ومن العلم والأدب. فلا نكون قد ملنا بها إلى جفاف العلم، ولا إلى مرونة الأدب، وإنما جمعنا لها الخير من أطرافه كلها"[1].

ورغم اطمئنان شكري فيصل إلى ما وصل إليه، وإلى سلامة إجراءاته ومنطلقه، فإنه يقرّ بدينه لكل ما نقده من نظريات مسبقة، ويدرك أن خطوته التي خطاها باقتراح المنهج الجديد إنما تلت خطوات عديدة سبقته، وأتاحت له ما أتاحت من أفق جديد. وهكذا يكتب عن منهجه الجديد، التركيبي -كما يصفه- بأنه:

"جاء إثر هذا التتبع الطويل للمناهج السابقة، والخصام العنيف الحاد معها، إنما كان أشبه بالظفر بعد المعركة.. إنه ثمرة كل المحاولات الماضية وخلاصة كل الحلول السابقة التي عاشت أو كان يمكن أن تعيش فيها الدراسات الأدبية، إنه مرحلة حققت كل نظرية سابقة خطاها

[1] انظر شكري فيصل، ***مناهج الدراسة الأدبية***، ص (٢٣٣).

فيه حتى بلغ هذه القمة، وليس في هذه القمة **جديد،** إلا أنها **تركيب نشيط خالق لهذه الوسائل الكثيرة،** وتكييف لها حتى تلتقي في هذا الأفق الذي نريد تحقيقه"[١].

ومما يجدر ذكره، إضافة إلى هذا المنطلق السليم النابع من نظرة نافذة إلى طبيعة الممارسة النقدية، التمييزات العديدة التي يشير إليها شكري فيصل في معرض حديثه عن أصول منهجه الجديد:

١- بين **الدراسة الأصلية** – التي تتناول الأدب ومنتجه، **والدراسة المساعدة** – التي تتناول المؤثرات الخارجية فيهما، كالإقليم والجنس والثقافة وغيرها.

وإصراره على أن الدراسة الأصلية "هي وحدها غرض البحث الأدبي الذي يجب أن يقتصر عليه وهدفه الذي يجب ألا يتعداه"[٢]. أي إن شكري فيصل يفصل من جانب ما بين الدراسة الأدبية Literary Study، والدراسة فوق الأدبية Extra-Literary Study: الدراسة الأدبية التي تعنى بالنص The Text، والدراسة فوق الأدبية التي تهتم بالسياق أو بما يحيط به Context، ولكنه يصر أيضاً على ضرورة التكامل فيما بينهما.

---

[١] نفسه ص (٢٢٨).

[٢] نفسه ص (٢٢٩).

٢- بين القضية الأدبية Literary Question الأصيلة، والقضايا الجانبية الأخرى، أو القضايا فوق الأدبية Extra-Literary Questions واعتباره القضية الأدبية أصلاً وما سواها تبعاً، وتأكيده حقها في أن تفرد بالدرس، فهي جوهر الدراسة الأدبية، وما سواها ليس إلا تمهيداً لظهورها وطريقاً للكشف عنها[١].

٣- بين الدليل النصّي "Textual Evidence"، وما بين الدليل فوق النصي "Extra-texual Evidence"، وتقديمه الأول على الثاني في الدراسة الأدبية.

٤- بين الأدب الخاص، الأدب بالمعنى الضيق للكلمة Literature proper الذي تسود فيه الوظيفة الجمالية، والأدب العام؛ بين النص الذي ندعوه أدباً لأن اللغة فيه تؤدي أساساً وظيفة جمالية، وبين النصوص الأخرى التي تسود فيه سواها من الوظائف الأخرى- كما هو شأن مقدمة ابن خلدون وما شابهها.

والواقع أن كتاب ***مناهج الدراسة الأدبية*** ، كتاب غني بالرؤى والاستبصارات النافذة التي تنطلق من إحساس سليم. وهو جدير بالفعل بدراسة متأنية آمل أن أنتهي منها في المستقبل القريب.

---

[١] نفسه ص (٢٣٠).

النموذج البديل، *وتطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة.*

لقد سبقت الإشارة إلى أن شكري فيصل لم يكن ليكتفي بمراجعة ما سبق إليه، ونقده، بل كان يتخذه منطلقاً يقترح على أساسه البديل – النموذج. Alternative Model يقدمه على مستويين: المستوى النظري، والمستوى التطبيقي.

وهكذا فإنه، بعد أن اقترح بديله النموذج في خاتمة كتابه "***مناهج الدراسات الأدبية***"، انصرف فيما تلاه من نتاج إلى تقديم مثال تطبيقي عنه هو كتابه العظيم والفريد بحق: "***تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة***"[1]، والذي ألقيت أصوله الأولى في جامعة دمشق عام ١٩٥١-١٩٥٢ على طلاب شهادة تاريخ العرب والإسلام في قسم اللغة العربية، وأغنيت بعض فصوله خلال الأعوام الستة التي تلته، وطبع لأول مرة عام ١٩٥٩، هذا الكتاب الذي جاء ليرسخ المقترح النظري في ***مناهج الدراسة الأدبية*** بالتحقق من إمكانية تطبيقه على هذا الأدب.

---

[1] انظر: شكري فيصل، ***تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة***، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، د. ت.

وقد استطاع شكري فيصل من خلال دراسته لنصوص شعر الغزل في العصور الثلاثة: الجاهلي والإسلامي والأموي، من خلال تفحصه للإنشاءات الفردية الغزلية في هذه العصور أن يخرج بنظرية أدب داخلية لهذا الغرض الهام من أغراض الشعر العربي، أو شعرية poetics، آنية Synchronic وتطورية Diachronic وكان عمله بحق كما يصفه ناشره نموذجاً فذاً من نماذج الدراسة الأدبية المعاصرة ارتفع فيه إلى مستوى الباحثين الكبار في تراثنا الأدبي العظيم. ولم يتحقق له ذلك إلا بسلامة إجرائه النقدي الذي قام على الانتقال من الإنشاء الأدبي الفردي، إلى النظام الأدبي الذي يحكمه. إن عملية التفسير التي كانت المنطلق كانت موجهة بالهدف الأخير الذي كان موضع نظر الناقد دوماً، وهو الخروج كما قلت بنظرية أدب داخلية، بشعرية خاصة بهذا الغرض الهام من أغراض الشعر العربي في العصور الثلاثة.

ومرة ثانية، فإن النجاح الذي حققه شكري فيصل في تطبيقه لهذا النموذج البديل، وهو نجاح تشهد عليه طبعات الكتاب العديدة من جهة، واعتماده مرجعاً أساسياً في معظم الجامعات العربية من جهة أخرى، لم يدفعه إلى التمسك الدوغمائي به كما هو، بل إنه، كما هو شأنه دائماً، سعى من جديد إلى بلوغ هامش التطوير الذي أشرت إليه من قبل. ولكن سعيه هذا لم تمله الرغبة في الوصول إلى الأفضل دوماً فقط، بل طبيعة المادة الأدبية أيضاً.

الصحافة الأدبية مهاد الأدب العربي الحديث

وهكذا فإنه عندما رغب في التوسع في عملية مسح رقعة الأدب العربي الواسعة، وجد أن الأدب العربي الحديث يفرض إجراءات أخرى متممة للمنهج المقترح (***مناهج الدراسة الأدبية***)، ثم المجرب والمستخدم بنجاح مشهود (***تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة***). وقد تبين له ذلك من خلال تفحصه لما قام به غيره، ونقده له. لقد وجد شكري فيصل أن دارسي الأدب العربي المعاصر غالباً:

"ما يقفون عند الأثر الأدبي، عند الديوان أو عند الكتاب، أو يقفون عند صاحب الأثر الأدبي... ولكنهم يغفلون عن مراجعه التي نشأ فيها، وتقلب في أعطافها في الحياة الأدبية، وقد لا يضعون دائماً أدبه في مكان من النتاج الذي كان من حوله، أي لا يضعونه في حيّزه من لداته وأقرانه، في الظروف التي نشأ فيها، في الشرائط التي أحاطت به فكونته أو أخرجته هذا المخرج"[١].

---

[١] انظر: شكري فيصل، ***الصحافة الأدبية: وجهة جديدة في دراسة الأدب المعاصر وتأريخه***، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٠، ص (١٠).

وبعبارة أخرى إنهم يغفلون السياق Context الفعلي الحقيقي للنص الأدبي العربي الحديث، وهو الصحافة الأدبية وغير الأدبية التي نشأ فيها هذا الأدب وترعرع.

والحقيقة أن المجلة -أدبية كانت أم غير أدبية- ليست، كما يشير إلى ذلك شكري فيصل، وهو مصيب حقاً فيما يذهب إليه، مجرد وعاء خارجي ليس له من مهمة إلا أن يجمع جمعاً آلياً بين هذه الآثار الأدبية، أو بين هذه الأسماء الأدبية. إنها -كما يحاول أن يوضح ذلك من خلال التشبيه- بمنزلة "الأرض التي تنبت فيها هذه الآثار الأدبية. في أعماق تربتها تبدأ هذه الآثار حياتها، ومن هذه الأعماق تستمد غذاءها، وفي نطاقها، تتآخى، وتتجاور وتختصم، ويجور الجذر على الجذر، ويحجب النبات: يحميه أو يغمه، يظله أو يقتله، يعينه أو يكون عوناً عليه... ونحن لا نملك أن ندرس الأثر الأدبي مجرداً عن هذه البيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيها.. ومن الذي يستطيع أن يجرد المقالات الأدبية من روح المجلات الأدبية التي كانت تظهر فيها"[1].

إن الصحافة الأدبية، بكلمات أخر، هي السياق المباشر الذي يحدد دلالة النص الحديث المدروس، وما لم يتم تبين هذا السياق، فإن الحديث عن دلالة

---

[1] نفسه، ص (٣).

هذا النص يكون ضرباً من البحث غير المجدي الذي طالما عانى منه أدبنا الحديث.

وفضلاً عن ذلك، فإن دراسة الأدب العربي الحديث من خلال الصحافة -على خلاف دراسته من الأعمال الكاملة التي تطلعنا على هذا الأدب في تشكلاته النهائية التي ظهر بها- تعرفنا إلى "التكوين الأولي والبطيء لجملة هذه الآثار الأدبية التي يتألف منها الأدب المعاصر... إنها تعرفنا هذا الأدب في أطوار تشكله، وظروف نموه، وهي لا تعرفنا بأدب شاعر أو بأدب مذهب، وإنما تعرفنا بكل هذا الأدب أسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، وهي بذلك تضع النتاج الأدبي في أصل تربته التي نشأ فيها"[1].

إن دراسة الأدب العربي الحديث من خلال الصحافة الأدبية تعيد علينا صورة الماضي كله.. صورة تشكله ونموه، صورة الشجرة كلها وصورة أغصانها وأوراقها والنباتات التي تعيش في ظلها، وبذلك نستطيع أن نجمع "بين النظرة الكلية لكل النتاج الأدبي في بيئته المعنوية وظروفه الدافعة وبين النظرة الفردية

---

[1] نفسه، ص (١٤).

لأثر بعينه أو لأديب بذاته ومن المؤكد أن مثل هذا الجمع سيتيح من العمق في الدراسة حظاً أوفى ونصيباً أوفر"[1].

وإذا كان الاستقصاء واستغراق النصوص- المارة شرطاً منهجياً، فإن دراسة الأدب العربي الحديث من خلال الصحافة شرط لازب لسلامة مدخلنا لهذا الأدب:

"إن كثرة كثيرة جداً من نتاجنا الأدبي إنما عاشت أولاً في هذه المجلات الأدبية: ظهر فيها ونوقش على صفحاتها... وإن هذه المجلات توشك أن تكون الحافظة لهذا التراث والمؤتمنة عليه... وإن القدر الأقل من هذا النتاج هو الذي جمع بعد ذلك في كتاب، تتعاوره الأيدي ويفيد منه الباحثون.. أما الكثرة من هذا التراث فقد بقيت حيث هي من هذه المجلات.. وهذه المجلات لا تكاد توجد إلا في دور الكتب العربية الكبرى، وما أندر ما يقع عليها الإنسان كاملة"[2].

---

[1] نفسه، ص (١٥).

[2] نفسه، ص (١٦).

ومعنى هذا أن دراسة الأدب العربي الحديث لن تكون دراسة قائمة على أسس سليمة ما لم تتلمس مادتها في الصحافة نفسها. وما لم تنظر إلى هذا الأدب في مهاده الصحيح، في سياقه المحدد لدلالته.

لقد وصل شكري فيصل إلى هذا الاستبصار المنهجي النافذ من خلال إحساسه السليم في التعامل مع الأدب العربي، واستجابته لطبيعة هذا الأدب التي كانت بحق الساحة المغناطيسية المحددة لإجراءات الممارسة النقدية لديه، أو لاستراتيجية في مواجهة النصوص التي كانت موضع اهتمامه الأول.

واستمر شكري فيصل في تطوير إجراءات ممارسته النقدية، وفي صقل استراتيجيته في مواجهة النصوص بحثاً عن هامش التطوير الذي كان شغله الشاغل، واستجابة لطبيعة هذه النصوص. وكانت حقول تجاربه، مختبراته، هي المحاضرات التي يلقيها في الجامعة، وتتناقلها الأيدي من سنة إلى سنة، تتتلمذ عليها سطوراً إن فاتها تتلمذ الحضور. ومن المؤسف حقاً أن هذه المحاضرات لم تأخذ طريقها إلى النشر (رغم أن الكثير منها قد ظهر على نحو أو آخر تحت أسماء أخرى، أو توزعه الرسائل الجامعية مسخاً ونسخاً، كما هو شأن الكثير من كتب الدكتور إحسان عباس أيضاً) بسبب رغبة صاحبها في استكمالها، وإخراجها في الصورة التي ترضي طموحه. وهيهات.

ولكن ذلك لم يمنعه من استمرار مواجهته المتجددة للنصوص، ومن التوسع في هذه المواجهة لتشمل إضافة إلى نصوص الأدب [1]، النصوص النقدية التي تحوّلت بأدوات تحليله المصقولة والبارعة إلى عوالم من الفكر النقدي حية وشائقة وغنية. ورغم حداثة مواجهته لها، إلا أن حظها في النشر كان أقل سوءاً من سابقتها -أعني مواجهة النصوص الأدبية- وهكذا خرجت بعض محاضراته في النقد الكلاسي [2]، خروج الخفر، في مقالات استكتبته إياها المعرفة الدمشقية (التي تصدرها وزارة الثقافة) في السبعينات، لتعطي بعداً جديداً لهذا النقد، وبينت بوضوح أنه لم يدرس بعد الدراسة التي يستحق. ولنسمعه في فاتحتها يتحدث لنا عن أزمة النقد العربي الكلاسي المتمثلة بعدم توفر نصوصه على نحو مرض من جهة وبعدم دراسته دراسة جادة يقول:

---

(1) انظر: شكري فيصل، "قراءة جديدة لمعلقة النابغة"، ***المعرفة***، العدد ١٣٧، تموز، ١٩٧٣، ص ص (٤٨-٧٢).

(2) انظر: شكري فيصل - "التراث البلاغي والمعاصرة"، ***المعرفة***، العدد ١٢٦، آب، ١٩٧٢ ص ص (١٧-٢٨).

- "نحو معرفة جديدة للنقد: نافذة على النقد الجاهلي العربي"، ***المعرفة***، ١٣٦، حزيران، ١٩٧٣، ص ص (٧١-٨١).

- "نظرية مبكرة للشعر في النقد العربي القديم" ***المعرفة***، ١٥١، أيلول، ١٩٧٤، ص ص (٧-٢٦).

"إن هذا النقد لم يدرس بعد هذه الدراسة التي نتمناها له، ونتطلع إليها، وقد يبدو ذلك مفاجئاً، أو ثقيلاً، ولكنه واقع.. إن الذي حدث حتى اليوم أن النقد العربي قد أرِّخ له فحسب... أو لنقل، في دقة: إنه قد عُرِّف به"[١].

وبعد أن يشير إلى محاولات طه إبراهيم، وأحمد أمين، وشوقي ضيف، وزغلول سلام، وإحسان عباس، يضيف أن هذه الدراسات قد: "أتاحت للنقد العربي فرصاً طيبة.. وكانت عملية تعريف ومحاولة استقصاء، ولكنها -وهذا طابعها- كانت تأريخاً أقبل يفيد منه الباحثون والدارسون.

غير أن الذي حدث -بفعل ظروف شديدة التعقيد من داخل الثقافة العربية ومن خارجها- أن الفكر الأدبي العربي ظل، على الغالب، حبيس هذا التأريخ للنقد.. إنه لم يتجاوزه إلى الدراسة العميقة، وإلى المقارنة الذكية، وإلى التفاعل الخصب مع النقد الأجنبي، وظل هذا الذي كتبه هؤلاء ومن والاهم هو النقد العربي، وظل ما يصل إلينا عن طريق القراءة أو عن طريق الترجمة هو

[١] انظر: شكري فيصل ***"التراث البلاغي والمعاصرة"***، ص (١٨).

النقد الأجنبي، وظل ما بين النقدين هذا هو الطريق المنقطع الذي لم تحاول الدراسات المحدثة أن تشقه في عمل دائب منظم"[١].

ولنره بعد ذلك يجري الاستعارة التي تنطوي عليها الآية الكريمة ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] بطريقته الفيصلية حتى ينكشف لنا صواب ما ذهب إليه في مسألة تواضع مستوى خدمته للنقد العربي الكلاسي.

إننا حين نجري هذه الاستعارة على الطريقة التقليدية العميقة نجريها وفق التعابير التالية: شبه الذل بطائر ثم حذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الجناح على طريقة الاستعارة المكنية. ولكن شكري فيصل ذا الذائقة النقدية المرهفة في حساسيتها ما كان ليقبل إجراءً كهذا يمسخ الإبداع في تعابير جاهزة مسبقة الصنعة، ويحوله إلى آلية رتيبة قاتلة في برودتها وهي تواجه نفحات الخلق ودفئه، لأنه يؤمن أن الأداء في المثل القرآني:

"لم ينطلق من عمل أسلوبي محدد مرسوم، التفكير فيه سابق عليه..

ولكنه انطلق من موقف.. هذا الموقف هو الذي قاد إلى هذا الأداء، وهو الذي أطلق خيوطه، وهو الذي نسج هذه الخيوط على هذا النحو، ثم هو الذي وشاها بعد ذلك هذه التوشية أو تلك.

[١] نفسه، ص ص (١٩-٢٠).

من هذا الموقف، في قلب المنشئ وعقله، ينشأ الأداء.. ومن عدوى هذا الموقف من خلال الأداء ينشأ التذوق عند المتذوق، ومن الوصل بينهما يكون عمل الناقد"[١].

وهكذا ينطلق شكري فيصل من الموقف الذي يصدر عنه الأداء، ويجري الاستعارة بنحوه الخاص فيه – النحو الفيصلي، السامي، المتألق إبداعاً، والفريد نفاذاً، والمتوهج دفئاً في تعامله مع النص:

"إن الآية الكريمة تنطلق إذن من هذا الموقف الذي يتلاقى فيه، في بيت واحد هذان الجيلان، جيل المقبلين على الحياة، وجيل المودعين لها.. المقبلون على الحياة يقبلون بكل اندفاعهم وقوتهم، بكل رغباتهم الجامحة الطموح يريدون أن يجتازوا كل عقبة، لا يتأثرون بعوامل الضعف ومظاهره، ولا يريدون أن يقفوا عندها.. على حين يكون المودعون للحياة يعيشون في أحضان الضعف: المرض والشيخوخة.. في هذا اللقاء تنبعث في جيل الآباء المودعين للحياة ذاكرتهم لماضيهم. رعايتهم لأبنائهم، دفء الجناح الذي فرشوه لهم.. وتتفجر في جيل الأبناء المقبلين على الحياة إرادتهم وعملهم وواقع الحياة العنيفة وضغوطها

---

[١] نفسه، ص (٢٥).

عليهم.. الأبناء لا يأبهون لشيء إلا لما يتصل بامتداد ذواتهم والآباء لا يهتمون بشيء إلا بما يقي هذه الذات أن تتقلص، وبما يحفظ ظلالها أن تتلاشى.. في هذا الوجود المولي والوجود المقبل لا بد من ضوابط، الإنسانية وحدها هي التي ترسمها، وهي التي تدفع الأبناء في عنفوان اندفاعهم أن يوطئوا للآباء أكنافهم، وأن يبسطوا لهم رحمتهم.

ولكن الآية لا تتحدث عن الرحمة مباشرة، وإنما تتحدث عن المنزلة.. تضع هذه الرحمة في قالب الذلة.. والمذلة تعني شيئاً من قهر النفس وتطويعها.. ومن هنا كان التعبير بـ.. اخفض لهما.. وكان الأداء بـ: الجناح. حتى يكون هذا الجناح الذي يفرشه الآباء متجدداً من الجناح الذي كان بسطه الآباء لأبنائهم من قبل.. جناح الرحمة هناك وجناح الذل من الرحمة هنا حتى لا يكون الأمر إشفاقاً أو مداراة أو مقابلة.

من كل ذلك تتألف هذه (الاستعارة).. إنها موقف فكري واجتماعي وسلوكي يصوغ هذه (الوقفة) الإبداعية... ولذلك كان لا يمكن فيما أقدر، لابن المعتز أن يعرف "استعارته" التعريف الجامع المانع ولا أن يقسمها.. ولا أشك في أنه كان قادراً على شيء من ذلك ولكن كان متأبياً عليه.. ذلك لأن التعريف والتقسيم حصار وتجميد،

والاستعارة مواقف حياتية ووقفات أدائية وليس لهذه المواقف أن يحصرها حدّ أو تقسيم"[1].

لقد أثبتُّ إجراء شكري فيصل لهذه الاستعارة بكامله -رغم طوله- لكي أوضح كيف أن الإجراءات البلاغية التي تسود تذوقنا للنصوص قد بلّدت أحاسيسنا بالفعل، وغرّبتنا عن أجمل ما في تراثنا وأروعه وأسماه. إننا في أمس الحاجة بحق إلى نقاد ذوي حس مرهف، ورؤية نافذة، يماثلان ما ينضح به نص شكري فيصل المقبوس سابقاً، وجميع نصوصه النقدية الأخرى التي انتهت بها مواجهته للأدب العربي قديمه وحديثه. هذه النصوص التي تجاري ما تواجهه إبداعاً وتألقاً وشفافية.

صفوة القول

في معرض تقويم محمد مندور لجهود الجيل الذي سبقه، يشير إلى أن هذا الجيل قد نجح في شيء، وأخفق في أشياء، ثم يضيف:

"وأكبر مظاهر الإخفاق، فيما يبدو، هو **خضوع ذلك الجيل لضغط الهيئة الاجتماعية،** نعم إنني لا أجهل أن **امتداد الزمن بالحياة كثيراً ما ينتهي بنا إلى الصلح معها،** فالشيوخ عادة أكثر رضى وتفاؤلاً من الشبان

---

[1] نفسه، ص ص (٢٥-٢٦).

الساخطين المتشائمين، كما أعلم أن **طول التجارب كثيراً ما يبصرنا بحدود للممكنات لم نكن نفطن لضيقها أيام حداثتنا.** بل **إن كل تجربة عبء يثقل خطانا"**[١].

والحقيقة أن المرء، عندما يقوّم عمل شكري فيصل، يتردد في أن يستعير وصفاً كهذا لما قدمه الرجل. ذلك أن شكري فيصل كان أبداً متأبياً على الخضوع لضغط الوضع القائم، أو الرضى به. وهو كذلك لم يكن ليقبل أن يعترف بحدود للممكنات، ولا يرى التجربة عبئاً يثقل خطاه. لقد كان نظره مشدوداً دائماً إلى فسحة التطوير -الذي أشرت إليها أكثر من مرة فيما مضى- واحة يغذ السير نحوها، يمهد الطريق لغيره. ورغم أننا كثيراً ما ننسى، عندما نسير في الدروب الميسرة – أول من شقها، إلا أن الوضع يختلف لدى شكري فيصل. لأن **الصوى، التي شكلها بإنتاجه معالم في طريق دراسة الأدب العربي، بقيت صوى تشير إلى عالم لم نعتده، وبالتالي نخاف ارتياده، لأننا في زمن دهره – على خلاف زمن أبي تمام**(*) **– يوم، وحقبه ساعة. زمن خلا**

[١] انظر د. محمد مندور، **في الميزان الجديد**، ط٣، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، د.ت، ص (٨).

من الحزم والعزم، زمن وصفه أوفيد [1]، فأحسن وأجاد. ولكن شكري فيصل كان خارجياً أبداً، كان رائداً ضل قومه الطريق إليه، فيا لبؤسهم إذا مضى.

---

[1] يقول أوفيد في العصر الحديد وعصر الصلب الفتاك:

"وأخيراً جاء عصر الحديد، فانبثق من فوره خسيساً دنيا، كله سوء فلاذت بالفرار صفات "الحياء" و"الحق" و"الإخلاص"

وحل محلّها الكيد والخداع

والعنف وشهوة الكسب المجرمة، ...

ثم جاء عصر الصلب الفتاك، ثم الذهب وهو أشد فتكا،

فاتخذت الحرب من المعدنين سلاحاً،

وأخذت تهز سلاحها المدوي بيد تلطخها الدماء

وأصبحت الغنائم للعيش مورداً فلا الضيف من مضيفه

ولا القريب من قريبه بات آمنا،

وانظر نص القصيدة في: د. حسام الخطيب، الأدب الأوربي: تطوره ونشأة مذاهبه، دمشق، ١٩٧٢، ص ص (٤٤-٤٦).



على هامش ملف شكري فيصل[1]

"اتحاد الكتاب العرب" يستحق أكثر من تحية لاهتمامه بأعضائه، ووفائه لذكراهم، فهو لم يكتف بالدعوة إلى يوم تأبين خاص بالمرحوم الدكتور شكري فيصل (أمين مجمع اللغة العربية بدمشق، وأستاذ الأدب العربي في جامعة دمشق) أقيم في الثلاثين من شهر تشرين الأول من عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف، وألقيت فيه ثلاثة بحوث في جلسة الصباح، وخمس كلمات وقصيدة في جلسة المساء، بل عمد إلى نشر كلمات التأبين في العددين (١٧٨ ـ ١٧٩) من الموقف الأدبي اللذين صدرا في ربيع عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف، والبحوث الثلاثة في العدد (١٨٥) من المجلة نفسها والذي صدر منذ شهرين. وفضلاً عن هذا وذاك فقد عمد إلى تكليف الصديق الدارس

[1] "***مجلة الموقف الأدبي***"، العددان ١٩٣ و١٩٤ أيار وحزيران ١٩٨٧.

سمر روحي الفيصل، أحد تلامذة الدكتور شكري الأوفياء لذكراه، بقراءة ملف البحوث وكتابة نقد له. وكأن الاتحاد أراد أن يتصل الحديث عن الفقيد العلم، ويجاري اتصال حضوره بيننا من خلال إنتاجه وتلامذته.

وعلى الرغم من أن الدارس الفيصل قد واجه الصعوبتين الخارجية والداخلية اللتين أشار إليهما في تقديمه لنقده، وهما قصر المدة الزمنية التي أتيحت له للنظر في المحاضرات - البحوث من ناحية؛ وتتلمذه على المرحوم الدكتور شكري من ناحية أخرى، إلا أنه كان، كما عهدناه في جميع كتاباته، مجتهداً يبذل قصارى ما لديه من وقت وفكر، يشيان بوفاء كبير للمرحوم من جهة، وحسن متابعة واهتمام بكل ما يجري من نشاطات تتصل به من جهة أخرى، من هنا يجد المرء نفسه يواجه إغراء التوقف عن النقد الذي نشره في الموقف الأدبي، فما أظن أن أحداً من مريديه، وهم كثر، بوده أن ينتهي.

وليسمح لي الصديق الدارس سمر بتوضيح يتصل بعلاقتي بالمرحوم، كنت قد أشرت إليه في كلمتي التي نشرتها صحيفة البعث إبان وفاته.

لقد بدأت تلمذتي على المرحوم سطوراً منذ انتسابي إلى قسم اللغة العربية في نهاية الستينات، وحضوراً منذ عودته من الجزائر في مطلع السبعينات، واتصل الأمر ما بيننا بعد تخرجي في القسم، فقرأت عليه ظاهرة الخضرمة في

دبلوم الدراسات العليا، وسجلت معه رسالتي للماجستير حتى إيفادي إلى جامعة أكسفورد عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف. ولم ينقطع ما بيننا بعد السفر، إذ كنت أراسله طوال تلك الفترة وأزوره كلما عدت إلى دمشق، وقد اتفقت معه على أن تجمع مقالاته في المعرفة عن النقد والأدب واللغة في مجلد أقوم بالتقديم له، وتأجل المشروع أكثر من مرة، إذ كان المرحوم ينشغل دوماً بما سينتج أكثر من انشغاله بما أنتج.

ومعنى هذا أن صاحب هذه السطور -على غير ما قد يوحي به نقد الأستاذ سمر- قد أتيح له خلال هذه السنين أن يتابع ما كتبه الدكتور شكري -على الأقل في ميدان الأدب والنقد- متابعة وثيقة، تشهد عليها إشارات المحاضرة المستمرة إلى كتبه الأساسية مثل مناهج الدراسة الأدبية، وتطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، والصحافة الأدبية، إضافة إلى مقالاته النقدية في المعرفة وسواها، والتي يجدها القارئ في هوامش النص المنشور للمحاضرة، والتي يبدو أن وقت الدارس سمر لم يسمح له بقراءاتها، أو أنه أغلقها لأنه لا ينظر فيها عادة.

وبالتالي فإن الشهرين اللذين سبقا المحاضرة (بين وفاة الدكتور شكري فيصل في الثالث من آب عام خمسة وثمانين، والثلاثين من تشرين الأول الذي تلاه) أنفقهما صاحب هذه السطور في التحديد الدقيق للإطار النظري الذي

ينظم مقاربة شكري فيصل للأدب وهو موضوع المحاضرة التي لم تستند، كما يبدو للصديق سمر، إلى جزء يسير من نتاج المرحوم، بل تتبعت جميع ما أنتجه مما يتصل بموضوعها.

لقد حاولت المحاضرة أن تدلل على أن إطار شكري فيصل النظري الذي يحكم مقاربته للأدب محكوم بالنص الأدبي، وأن هذا الإطار كان يتطور بتطور طبيعة هذا النص؛ وأنه رغم عنايته بالنص وقراءته المتمعنة له كان لا ينسى النظام الأدبي Literary System الذي يحكم إنتاج هذا النص.

وبكلمات أخرى، كان المرحوم في مقاربته للنصوص يوجه عيناً إلى النص الذي يباشره بالدرس، ويوجه عيناً أخرى إلى النظام الأدبي الذي يحكمه، أو إلى نظرية الأدب، أو الشعرية التي تحدده.

وهو في ذلك يقترب، إن لم نقل يجاري تماماً إجراءات النقد المعاصر الذي خلق النقد الجديد New Criticism في العالم الأنكلو - أمريكي خاصة، والنقد الأوربي عامة، والذي يحاول أن يمضي إلى ما وراء تفسير النصوص، ليضع يده على النظام الأدبي الذي يحكم إنتاج هذه النصوص.

ولهذا فإن المحاضرة لم تقبس من نصوص شكري فيصل إلا ما يوضح هذه المقاربة ويبرزها، وهي غير معنية بالتفصيلات الأخرى، رغم أنها لا تغفلها. بل إنها لتنطلق منها، وتقوم عليها.

والمثال الذي أورده الصديق الأستاذ سمر يدلل على ذلك. فهو يؤكد ما تصل إليه المحاضرة من نتائج. وكذا يكون حال كل مثال آخر يرغب الأستاذ سمر في إيراده، فضلاً عن كل ما ذكره من كتب ومحاضرات ومقدمات كتب، عاد إليها صاحب هذه السطور، لأنه جميعاً لا يضيف أي شيء إلى وضوح الصورة التي قدمتها المحاضرة، إلا بمقدار ما تضيفه الإشارة إلى شجرة ما، إلى تشكيل الغابة الكثيف والغني.

نعم إن الإجراء النقدي عند الفقيد ليس مقصوراً على الطوابع العامة، وليس ثابتاً ولا مطلقاً، لأنه نابع من ممارسة نقد النصوص. وقد تطورت هذه الممارسة بعد مناهج الدراسة الأدبية كثيراً، وبدت صورتها الأولى المعدلة في تطور الغزل وصورتها الثانية في محاضراته عن النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وجرير... وهذا بالضبط ما وضحته المحاضرة عندما تتبعت تطور هذا الإجراء، من خلال بحث المرحوم عن هامش الأفضل، في كل ما سبق ذكره من كتب، وفيما تلاه من نتاج مثل "الصحافة الأدبية" ومقالاته الأخرى في المعرفة وسواها فيما بعد. إن الصديق الفيصل، على خلاف ما يود أن يقول في نقده، قد استوعب

مضمون المحاضرة تماماً، وهو يفصح عنه بإيجاز في مقبوسه السابق، إذ إن المحاضرة تؤكد أن ما يحكم مقاربة شكري فيصل للأدب هو النصوص الأدبية نفسها، وأن ما يوجهها هو البحث عن النظام الأدبي الذي يحكم هذه النصوص.

بقي أمر آخر وهو أن لدى صاحب هذه السطور العديد من محاضرات الدكتور شكري فيصل عن النقد العربي الكلاسي، والخضرمة، وسواهما من الموضوعات إضافة إلى ما ذكره الأستاذ سمر، وما بقيت هذه المحاضرات مخطوطة، فليس من اللائق مناقشتها قبل نشرها تحت اسم الدكتور شكري فيصل أولاً، وذلك حتى تتاح الفائدة منها لجميع المهتمين بموضوعها من دارسي الأدب العربي.

وأخيراً أود أن أشير إلى أن ثمة فريقين في الدرس الأدبي، فريق لا يرى غير الأشجار المنفردة، وفريق لا يرى غير الغابة التي تشكلها مجموعة الأشجار. ولا يستطيع أي مهما أن يزعم أنه يملك القول الفصل في طبيعة المادة التي يجيل فيها بصره. لأن كليهما بعيد عن استيعاب حقيقتها. ذلك أن السبيل الأمثل إلى تلك الحقيقة، ولا أظن إلا أن الأستاذ سمر يوافقني في هذا، هو التفحص المدقق لجميع الأشجار ودراستها عن كثب في المرحلة الأولى،

والتسامي فوقها لرؤية ما تشكله من غابة في المرحلة الثانية. وهذا ما حاولته المحاضرة.

فهي لم تغفل جزئيات ما أنتجه المرحوم شكري فيصل، وما كان لها أن تفعل ذلك، ولكنها في الوقت نفسه تسامت فوق هذه الجزئيات، ونظرتها من عل. وقدمت بعد ذلك رؤيتها لتشكل هذه الجزئيات في كل شامل.

لقد بدأت المحاضرة - البحث، من إجراءات المتذوق الأمهر، من تفسيراته للنصوص، من مواجهاته لها، وانتهت بمقاربته Approach للأدب، بالإطار النظري Frame of reference الذي يحكم هذه المواجهة، فحددته، لعله يكون إحدى الصوى التي تساعد على الخوض في عالم شكري فيصل الفسيح والغني في آن.

جامعة دمشق

تشرين الثاني ١٩٨٦





محمد إحسان النّص

(١٩١٩-٢٠١٢م)



وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

محمد إحسان النص

كلما سقطت ورقة من شجرة المعرفة التي أتفيأ ظلالها تداعى إلى ساحة وعيي بيت عمرو بن معديكرب:

ذهب الذين أحبّهم وبقيت مثل السيف فرداً

وعندما أتأمل وجهي في المرآة، أحدّق في آثار الزمن فيه، وأشعر بدنوّ الأجل إذ ينسرب الضعف في جسدي، أعزي النفس ببيت حبيب بن أوس الطائي، أبي تمام:

لا تنكري منه تخديداً تخلّله فالسيف لا يُزدَرى إن كان ذا شُطَب

غير أني سرعان ما أصحو على بؤس الواقع الذي نعيشه منغمسين فيه برضى غريب عجيب، وإذ يتَبيَّن لي كيف تزهد مجتمعاتنا بآثار السنين، وتشتري

خبرات الحياة بثمن بخس، فإني أسلم أمري إلى من منحني نعمة الحياة، مردداً "حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل".

ذهب الذين أحبهم، أقولها وأنا أغبطهم، ذلك أنهم استسلموا لملك الموت يقبضهم إلى جوار ربهم، ومضوا إلى قبورهم يرقدون فيها، لعلهم يجدون هناك بعض الراحة في ضجعة الموت إلى حين انتقالهم إلى دار الشقوة أو دار الرشاد، إذا ما رغبنا في استعارة عبارة أبي العلاء المعري:

خلق الناس للبقاء فضلَّتْ	أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما	ل إلى دار شقوة أو رشاد
رقدة الموت ضجعة يستريح الـ	ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

أغبطهم على ما انتهوا إليه من راحة، أما نحن، الأحياء، فلا راحة لنا إلا بلقاء وجه ربنا. ذلك أن الأحياء عندما يواجهون الموت: يفقدون حبيباً، أو قريباً، أو صديقاً، فإنهم:

يعيشون الندم، بل الإسراف فيه، على تفريطهم بفسحة الحياة وعدم لقاء الفقيد أكثر مما لقوه؛

يعيشون الإحباط بسبب استحالة التواصل مجدداً مع الفقيد، ولا جدوى الندم مهما طال.

وهكذا يلجؤون إلى استحضاره في نفوسهم بالحديث عنه، أو الكتابة عن مآثره، أو اجتراح أي فعل يشي بحزنهم على فقده، ويسعى إلى استدراك تقصيرهم بما كان عليهم أن يفعلوه من أجله عندما كان حيّاً.

ولكن كل ذلك وهم، فالكتابة تُغيِّب الفقيد، بحديثها عنه بصيغة ضمير الغائب، مع أنها تجهد في ذكر محاسنه، وهكذا فإنها تتحول إلى قتل ثان له من حيث لا يدري صاحبها ما تجترحه يداه.

غير أن الصمت، وهو الخيار البديل، تغييب له أيضاً، بالتجاهل أو الإهمال. ولذلك فإن جاك ديريدا كان يواجه الفقد دائماً بوعد الكتابة عن الفقيد لاحقاً، ولكنه في نهاية المطاف كان يكتب[١]، وهأنذا أكتب عن شيخي محمد إحسان النص، فكيف لي أن أفرّ من قتله ثانية بالحديث عنه حديث الغائب؟ إنها لمعضلة والله، وتجاوزها مجرد اجتهاد، مسعى لعله يُحمد.

---

[١] انظر كتابه:

Jacque Derrida, ***The Work of Mourning***, Ed. Pascale-Anne Brault and Michael Nass, (The University of Chicago Press, Chicago and London, 2001).

يبدو لي أن السبيل الوحيد للابتعاد عن التغييب الذي أشرت إليه هو محاورة الرجل.

لقد توقف قلب "**الإحسان**"، وتوقف الرجل عن المزيد من العطاء، ولكن "**النص**" لا يزال بين أيدينا "**علماً ينتفع به**" ومن المحال أن يتوقف إحسانه، **فلنحاوره بالاحترام الذي يليق بتاريخ صاحبه، وبالجدية التي أخذ نفسه بها، وبالأناة التي يبدو أنه فُطر عليها، وبالمعرفة التي كانت ديدنه، وبالإخلاص الذي كان دأبه، خاصة وأن الرجل اتخذ من "شرح النصوص" Explicatione de Texts منهجاً يتدبّر به نصوص الآخرين، وكان كل ما فعله ينطلق من النصوص ويرتد إليها، لينوّر قارئها بعده ويجعله في وضع يمكنه من استيعابها وفهمها على النحو الأمثل.**

لقد انشغل الرجل منذ بداية مسعاه المعرفي **بنشأة الوعي الجمعي للأمة العربية وتشكُّله في ظل الدولة الأموية، بوصفها أنموذجاً للإفصاح السياسي المعافى عن الأمة العربية**، ويُعدّ هذا الأنموذج، بإجماع المؤرخين السياسيين العرب وغير العرب، من أكثر النماذج تطوّراً وأنصعها تعبيراً عن الإرادة السياسية للأمة التي قامت على **التنوع الخلاق Creative Diversity**، والذي تجلى بأسمى صوره في الأندلس التي لاتزال، ليس في عيون العرب وذاكرتهم فحسب، بل في عيون الإنسانية وذاكرتها الجمعية أيضاً، **الفردوسَ المفقودَ**

الذي ينبغي عليها أن تستعيده. أقول لقد انشغل الرجل بعملية تشكّل هذا الوعي عندما درس ***"الخطابة العربية في العصر الذهبي"***، وبعدها ***"العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي"*** في رسالتيه لدرجتي الماجستير والدكتوراه، ليتبعهما بدراسة ***شعر الغزل في العصر الأموي، والشعر السياسي في العصر الأموي،*** ودراسة كلٍّ من الشعراء ***حسان بن ثابت وزهير بن أبي سلمى والعباس بن الأحنف،*** فضلاً عن دراسته الرائدة والمتقدمة لـ ***القبائل العربية وأنسابها وأعلامها*** في جزئين، وصناعته لـ **اختيارات الأغاني** في ستة أجزاء. وعمله العلمي الأخير ***كتب الأنساب العربية*** الذي صدر عن **مجمع اللغة العربية،** **منصرفاً إلى دراسة نصوص الأدب العربي وما تنطوي عليه من توزُّع الولاء بين "الأنا" و"الجماعة"، ولعله كان يسعى من وراء ذلك إلى فهم طبيعة النفس العربية من خلال فهم ما تفصح عنه شعراً ونثراً، ليتبين السبيل إلى تعزيز الولاء للجماعة في نفوس أبناء الأجيال التي درَّسها في سورية والجزائر والكويت، فَبِه وَحدَهُ تجد سبيلها إلى العزة والكرامة، وإلى بناء الحاضر الذي يليق بصروح الماضي المجيد، واستشراف المستقبل الواعد، الذي يمكن أن يفخر أحفادُ بُناتِه بِمن بناه.**

ومن الضروري بمكان الانصراف إلى محاورة هذا **"النص" المتدفق على مدى أكثر من ستة عقود**، والانشغال به وتجاوزه حتى يتم الإسهام على نحو إيجابي بتأدية الرسالة التي نذر نفسه لها.

نعم لقد توقف قلب **"الإحسان"**، وغيَّبه الموت، ولكن **"النص"** لا يزال بيننا لنحاوره بما أمكن من طرق يمكن أن أشير إلى بعضها على نحو برقي:

1. **الكتاب التكريمي Festschrift** الذي يسهم فيه أصدقاء المكرَّم، وتلامذته، وأقرانه بغرض التنبيه على مكانته، وأهمية إنتاجه، وتوضيح إسهامه في حقل تخصصه المعرفي؛

2. **تسمية كرسي باسمه في قسم اللغة العربية في جامعة دمشق** يُسند إلى من ينهض برسالة المكرّم التي نذر نفسه لها.

3. **تنظيم محاضرة تذكارية باسمه تلقى سنوياً** من جانب أستاذ بارز في حقول اهتمامات المكرّم.

4. **تأسيس منحة باسمه تمنح لطالب أو أكثر** يتابع دراسته في جوانب من اهتمامات المكرّم البحثية.

٥. **تخصيص جائزة كتاب باسمه** تمنح لمُؤَلِّف يتناول واحداً من جوانب اهتمامات المكرّم الفكرية والبحثية.

6. **إقامة ندوات ومؤتمرات** تناقش إسهام المكرّم وأعماله.

٧. **إصدار أعداد خاصة من المجلات المرموقة المعنية باهتمامات المكرَّم تتناول موادها حياته وأعماله بالدراسة والتحليل والمناقشة وتتحاور مع آرائه وأفكاره وتبني عليها، دافعة أبحاثه ومحاجاته إلى مدى أوسع وأفق أبعد.**

7. **تسمية بناء، أو مكتبة، أو قاعة، أو مدرج في الجامعة باسمه، تُذَكِّر بإحسان الرجل الغائب، والنص الحاضر.**

رحمك الله يا شيخي الجليل، وألهم أهلك وأحبّتك الصبر والسلوان، وبعث فينا ما ينبغي من علوِّ الهمة والإخلاص في العمل للنهوض بعبء حوارك في ما تركته فينا من علم ومعرفة، لنفهم أنفسنا، ونفهم غيرنا، ونفهم العالم الذي نعيش فيه.

ذكرياتي مع الدكتور محمد إحسان النص

عرفت أستاذي الدكتور محمد إحسان النص أول ما عرفته بسطوره عندما قرأت كتابه عن ***حسان بن ثابت*** في السنة الثانية من دراستي للإجازة، واتخذته منطلقاً لدراسة نقائض شاعر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع قيس بن الخطيم، كما أفدت في تلك السنة من كتبه الأخرى ولا سيما كتابه عن ***الخطابة العربية في عصرها الذهبي***، الذي يعدّ واحداً من أفضل المراجع عن هذا الفن الذي ازدهر في العصر الأموي أيما ازدهار.

وعندما بلغت السنة الرابعة، أو سنة التخرج، تطلعت إلى حضور محاضراته في الأدب الأموي بعد عودته من الجزائر، مع أني قد نجحت في مقرر الأدب الإسلامي والأموي الذي يُدَرَّس في السنة الثانية، ولكني، مثل غيري من زملائي في تلك السنة، فوجئت بتوليه تدريس الجانب النظري من مقرر **الأدب المقارن** الذي أضيف إلى مقررات قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة دمشق

في العام الدراسي ١٩٧٢-١٩٧٣، بفضل جهود الأستاذ الدكتور حسام الدين الخطيب رئيس القسم آنذاك، وكنا، بدافع الاهتمام بهذا المقرر الجديد، وبالرغبة من الإفادة من الأستاذ النص، لا نُفَوِّت محاضرة من محاضراته التي كان يمليها علينا بسبب قلة المراجع المتاحة آنذاك. ولا زلت أملك نسختي المخطوطة من هذه المحاضرات التي تناقلها العديد من زملاء الدفعات اللاحقة على مدى أكثر من عشرين عاماً، وأفادوا منها في تحضيرهم للامتحان.

والحقيقة أن كثافة محاضرات ذلك العام، وحضور محاضرات المرحوم الأستاذ الدكتور شكري فيصل في الأدب الإسلامي، والنقد العربي القديم، حالت دون حضور محاضرات النص الأخرى، وكان علينا أن ننتظر حتى العام التالي حتى نلقاه في محاضرات الأدب التي كان يلقيها على طلاب **دبلوم الدراسات الأدبية**، والتي اختار لها كتاب ***الإمتاع والمؤانسة*** لأبي حيان التوحيدي، وقد كانت على درجة من الإثارة والجدة والعمق دفعتني إلى التفكير في اختيار الكتاب ليكون موضوعاً لرسالتي لدرجة الماجستير، كما أنها كان وراء اختياري لإحدى ليالي الكتاب لتكون موضوع حلقة بحث مقرر **الدراسات الفنية والجمالية** الذي كان يدرسه آنذاك الدكتور عفيف بهنسي **تغمّده الله** برحمته.

وإذ تطوعت في تلك السنة لأُقدِّم أول حلقة بحث في مقرر الدراسات الأدبية، فقد ظفرت باهتمام الدكتور النص وعنايته، وعندما أعاد إليّ الحلقة بعد قراءتها مزدانة بملاحظاته الدقيقة تبينت مدى حرصه على الارتقاء بعمل تلامذته إلى درجة لم ألمسها في كثير من أساتذة ذلك العام الدراسي الحافل، وأهم من ذلك كله هو ما كان لنقاشاته ومحاوراته مع هؤلاء التلاميذ من كبير الأثر في دفعي إلى تفحص كل كلمة أخطها. وأذكر، فيما أذكر، **تعليقه** على استعارتي لعبارة زكي نجيب محمود في مديح أبي حيان التوحيدي عندما نعته بـ **"فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة"**، والذي نبهني به على أن **عبارة كهذه لا تنطوي على المديح المفترض لعمل التوحيدي، بل إنها ربما انطوت على انتقاص من قدره. فهو الفيلسوف بين الأدباء، والأديب بين الفلاسفة، وأي إطراء للرجل عندما لا تكون المفاضلة بينه وبين نظرائه، ولا تعقد المقارنة بينه وبين أنداده ممن ينتمي إليهم في وجوه إبداعه التي يفخر بها، ولو أننا نعتناه بأديب الأدباء، وفيلسوف الفلاسفة لكان ذلك إطراءً حقيقياً.**

ومما نبهنا عليه كذلك ضرورة التعبير على **نحو مباشر وواضح عما نريد الإفصاح عنه من أفكار، وأن نتجنب الكلام العام الغامض والمُداوِر، لأنه لا يسمن ولا يغني من جوع.**

وكان أجمل ما في لقاءاتنا بالأستاذ النص في ذلك العام الجميل والحافل بالفائدة والمتعة والجد والاجتهاد هو **أسلوبه الحواري** الذي أخذ نفسه به مع طلابه في تلك المحاضرات التي دارت حول محاورات أبي حيان في لياليه وتحولت بجهود أستاذنا إلى حوار متصل بيننا وبينه، مما كان أفضل تدريب لهؤلاء الطلبة على آداب الحوار وأصوله وأخلاقه.

وإذا **كان لكل من اسمه نصيب،** فقد كانت محاضرات الأستاذ الدكتور النص كلها إحساناً خالصاً، مفعماً بالمعرفة، ومزداناً بالأدب الرفيع، ومرصعاً بحس فكاهة: رقيق، عذب، جميل، يروّح القلوب وينعش الأرواح، ربما قبسه أستاذنا عن الجاحظ وغيره من أعلام النثر العربي الذي كان الدكتور النص من أفضل دارسيه.

وعندما تم اختياري معيداً في قسم اللغة العربية وآدابها، وكلفني رئيس القسم مساعدته في إدارته، إذ كان يجمع آنذاك بين رئاسة القسم ومنصب معاون وزير التعليم العالي، ازدادت معرفتي بالدكتور النص، وازداد احترامي له، وتعمقت محبتي لأخلاقه وسلوكه المثالي بوصفه أستاذاً جامعياً نذر نفسه لإنتاج المعرفة من جهة، ولنشرها بين طلابه.

وعندما أوفدت للدراسة في إنكلترة، وتسنم الدكتور النص عمادة الكلية، حرصت على لقائه في أول عودة لي بعد مضي سنتين على سفري، ووجدت فيه كالعادة، الأستاذ والأب الناصح الحريص على مستقبل تلامذته وأبنائه.

ثم غادرنا إلى جامعة الكويت، وانقطع تواصلنا إلا ما تيسر من لقاءات عابرة في إجازات الصيف في **مجمع اللغة العربية** وغيره من الصروح العلمية التي كان يسهم في أعمالها. وعندما غدا الأستاذ النص نائباً لرئيس المجمع، ينظم مؤتمراته ونشاطاته، كان حريصاً على مشاركتي في المؤتمرات السنوية للمجمع، وكان له الفضل الأكبر في تحفيز اهتمامي بجوانب من اللغة العربية في مجالات التدريس والإعلام وغيرهما، وأنا مدين له وللأستاذ الدكتور شاكر الفحّام، طيّب الله ثراه وأسكنه فسيح جناته، بكتابة عدة بحوث مهمة عن المصطلح النقدي العربي الحديث، وعن تدريس النقد العربي الحديث في الجامعة، وعن لغة الإعلام، وسبل اكتساب الطفل للغة في الأسرة والمدرسة والمجتمع وغيرها، نشر بعضها في **مجلة المجمع**، وظل عدد منها على لغة من ينتظر، كما هو الشأن في كثير من وقائع مؤتمرات المجمع التي لمّا تأخذ طريقها إلى النشر.

وكذلك فقد أقام **قسم اللغة العربية وآدابها** ندوة تكريمية رعاها رئيس **جامعة دمشق** آنذاك الأستاذ الدكتور هاني مرتضى، كان من المفترض أن تلقى فيها

ثلاثة بحوث لثلاثة من أعضاء الهيئة التدريسية، تتناول إسهام محمد إحسان النص في دراسة الأدب العربي، وكنت واحداً منهم، ولكن جور أحد المشاركين على برنامج الندوة وضيق الوقت المخصص لبحوثها حال دون إلقائي بحثي الذي خصصته لتفحص مقاربة إحسان النص للأدب والتي تقوم أساساً على تقليد **شرح النصوص Explanation de Textes** المستمد من التقاليد الجامعية الفرنسية التي هيمنت عليها طريقة لانسون في فرنسا منتصف القرن العشرين. وظل هذا البحث ضمن ملفاتي التي تنتظر إعدادها للنشر، والتي يضيق وقتي المتاح في غالب الأحيان من العودة إليها وتنقيحها ونشرها بين الناس، وهو ما يخلِّف في النفس شعوراً بالذنب والتقصير تجاه أستاذ جليل قدّم الكثير لأمته ووطنه، وقدم للأدب العربي والثقافة العربية بشكل خاص خدمات جلّى.


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



عفيف بهنسي

(١٩٢٨-٢٠١٧م)



عفيف البهنسي:

صورة الفنان أستاذاً

التلمذة نوعان: تلمذة الحضور وتلمذة السطور، وقد تتلمذت على عفيف البهنسي حضوراً وسطوراً: درست عليه علم الجمال وتاريخ الفن والعمارة في سنة **دبلوم الدراسات الأدبية** عام ١٩٧٣، وقرأت معظم كتبه المتصلة باهتماماتي المختلفة قبل ذلك وبعده، ولا أزال أتابع ما ينشر، وقد سررت أيما سرور، وأفدت أيما فائدة من قراءة كتابه الأخير **عفيف البهنسي والجمالية العربية: دراسة وحوار** الذي يضم حواراته مع الدكتور عزت السيد حسن، والذي تشرفت **الهيئة العامة السورية للكتاب** بنشره في مطلع عامنا هذا، عام **دمشق عاصمة الثقافة العربية**.

وعلى الرغم من مضي نحو من ثلاثة عقود ونصف على أول لقاء شخصي لي بعفيف البهنسي، وعلى الرغم من كل ما أبانت لي عنه هذه السنون من ودّ واحترام ولطف بل رقة وسمو في تعامله معي، ومع الآخرين عامة، فقد ظل يشغل في نفسي منزلة الأستاذ الذي تأخذك مهابته، ويأسرك كماله، ويفتنك علمه، ويأخذ بلبك بيانه، بل سحره الحلال، وتغوي عقلك رؤيته التاريخية العميقة لمسيرة الأمة التي ينتمي إليها. بل إنه كثيراً ما بدا لي صورة عن رجال عصر النهضة الذين تعددت وجوه إبداعهم وأغنوا الحضارة الإنسانية في ميادين عديدة من المعرفة والعلم والفن. فهو الفنان التشكيلي (الرسام والنحات ومصمم الشعارات والطوابع البريدية والعملة الورقية السورية والصروح والمتاحف)، وهو مؤرخ الفن القومي والعالمي، وهو الناقد الفني، وهو عالم الجمال، وهو المفكر والمثقف، وهو الناقد التطبيقي، وهو المحرّر، وهو الإذاعي، وهو الإداري، وهو المنشئ والمؤسس للمتاحف والمعاهد والمراكز الفنية التشكيلية، وهو الأستاذ الجامعي، والمحاضر القطري والعربي والدولي في مختلف المراكز الثقافة والجامعات ومراكز الأبحاث، وهو بعد ذلك الشاعر...، إنه، باختصار شديد، الإنسان المتعدد المواهب والقدرات والإنجازات، الذي جسّد عظمة المعجزة الإنسانية التي خلقها الله في أحسن

تقويم، وكان في عمله خير شاكر لنعمة الحياة التي أنعم الله بها عليه، وكان يومه، في عزمه وحزمه، مثل يوم أبي تمام، مثلما كانت ساعاته مثل ساعات هذا الأخير حقباً ممتدة:

يومي من الدهر مثل الدهر ممتلئ عزماً وحزماً وساعي منه كالحقب

والحقيقة أن هذه الصورة قد تكونت لديّ نتيجة تجربة متميزة مع الرجل امتدت ثلاثة عقود ونصف، وبدأت بسنة دراسية غنية على المستويين المعرفي والإنساني عشناها، نحن طلاب دبلوم الدراسات الأدبية في قسم اللغة العربية وآدابها، مع عفيف بهنسي: الأستاذ والإنسان على مدى عام كامل، كانت تجمعنا فيه القاعة الشامية الرحبة التي تجمع الفنون التطبيقية الشامية والتي تعد بحق فسحة فريدة بما تنطوي عليه من جمال وروعة يجعلانها مصدر إلهام لمن يتردد عليها بانتظام أو حتى لمن يزورها مرة واحدة. وقد أفسح لنا أستاذنا فيها زاوية كنا نتحلق فيها حول طاولة مستديرة تضمنا معه، وكان تحلقنا هذا مؤشراً واضحاً على فهم سام لطبيعة العلاقة بين الأستاذ والتلميذ والتي تقوم في رأي أستاذنا على الندية، والديمقراطية، وإلغاء أي حاجز يمكن أن ينهض بين الشيخ والمريد.

وأما طريقة هذا الشيخ فكانت إثارة اهتمام مريديه بالقضية التي أرادها موضوعاً للقائه، ثم المضي للحديث عنها على نحو موجز، وإفساح أكبر قدر ممكن لشركاء الحلقة للإدلاء بآرائهم فيها بحرية وثقة كان مصدرهما رحابة صدر الأستاذ، وسعة أفق تفكيره، وثقته بنفسه وبهم، وكان شرطه الوحيد الذي يصرّ عليه دائماً هو الصدور في الرأي عن معرفة، وشفعه بالدليل، والسعي الجاد لإقناع الآخرين به من خلال المحاجة الهادئة المتزنة التي تحترم حق الآخرين في إبداء ما يرون من ملاحظات وانتقادات بدرجة تمسكها بحق المرء في التعبير عن رأيه بالحرية العارفة الخبيرة.

وفضلاً عما اغتنينا به ذلك العام من معرفة بعلم الجمال، وتاريخ فن الرسم وفن النحت وفن العمارة في الشرق والغرب، وأنظار المفكرين العرب القدامى في الجمال، وموقف الإسلام من الفن وبخاصة فني الرسم والنحت، ووجوه من التفاعل المثري للتجربة الفنية بين الفن الأوربي والفن العربي الإسلامي، فقد قام كل منا باختيار موضوع من الموضوعات الكثيرة التي طرحها أستاذنا علينا ليكون موضوعاً لحلقة بحث تعدّ بإشرافه، وتطبع وتوزع على جميع الزملاء، وتكون بالتالية رافداً مهما للمعرفة الفنية والجمالية التي رمى إليها واضعو مناهج دبلوم الدراسات الأدبية عندما قرروا على طلبته مساق الدراسات الفنية والجمالية. ولا زلت أذكر كيف أن التعاون ما بين أستاذنا الدكتور محمد

إحسان النص الذي كنا نقرأ عليه كتاب **الإمتاع والمؤانسة** لأبي حيان التوحيدي وبين أستاذنا البهنسي في الإشراف على حلقة بحثي قد أثمر دراسة حملت عنوان: "أصالة معاصرة في مفاهيم الشعر والنثر عن أبي حيان التوحيدي" [١] ونشرت لاحقاً في مجلة **الموقف الأدبي** بتشجيع من الأستاذ عادل أبو شنب الذي كان آنذاك سكرتير تحريرها. ولم تكن هذه الدراسة الثمرة الوحيدة التي قطفتها من غرس الأستاذين، بل كان ثمة ثمار طيبة، رافقتني منذ ذلك التاريخ، غرس بذورها ورعاها الأستاذ البهنسي، وكان من بينها موضوع الاستشراق الفني الذي أتى على الكثير مما كنت أوفره من مال من منحتي المتواضعة عندما كنت طالباً في جامعة أكسفورد لشراء كتب الفنانين المستشرقين المرتفعة الثمن، وزيارة معارضهم، وتتبع ما يؤلف عنهم، وما يكتب في الدوريات العامة والمتخصصة حتى كان لي من ذلك مكتبة لا بأس بها تغني فهمي لهذا الوجه المهم من علاقة الشرق بالغرب.

وكان من بينها كذلك تاريخ الفن (الرسم والعمارة والنحت بشكل خاص) في الغرب الذي تحول إلى فسحة محببة إلى النفس أتخفف فيها من عناء

---

[١] انظر: عبد النبي اصطيف، "أصالة معاصرة في مفاهيم الشعر والنثر عند أبي حيان التوحيدي"،

الموقف الأدبي (دمشق)، العدد ٩١، تشرين الثاني ١٩٧٨، ص ص (١٠٩-١٢٤).

البحث في نظريات النقد والدرس المقارن للأدب، وكان لهذا تأثيره المهم في تنبهي للعلاقات المتبادلة ما بين الفنون الجميلة أو لما يسمى عادة بتراسل الفنون، الذي غدا لاحقاً من اهتمامات الدرس المقارن الرئيسية في الربع الأخير من القرن الماضي، وفي حفز العديد من دراساتي المقارنة التي كان آخرها دراسة لآية النور بينت فيها كيف أن تحويل الصورة اللفظية إلى صورة بصرية شرط لازب لاستيعاب دلالاتها القريبة والبعيدة، ولا سيما تجسيدها البصري لحضور الإيمان في النفس الإنسانية.

وكان من بينها أخيراً الكشف عن وحدة الفن العربي وبخاصة في مجالات العمارة والرسم والزخرفة والفنون التطبيقية التي تجسدت عبر العصور في هوية، لا يمكن أن يخطئها دارس، ميزت هذا الفن وجعلته أجمل إفصاح وأروعه عن الإنسان العربي الذي عمر قلب العالم القديم ولا يزال.

هذه هي بعض وجوه حضور أستاذي عفيف البهنسي في نفسي وروحي وعقلي وإنتاجي، الذي لم يكن غير ثمرة الغرس الطيب، لأبويّ، رحمهما الله، ولأساتذتي الذين كانوا مثال القدوة التي كنت أتطلع إليها ولا أزال، والتي كان عفيف البهنسي تجسيداً حياً سامياً لها، وكان بحق منارة يهتدي بها كل من فُتِن بهذا الوطن مكاناً وسكاناً، وكان كذلك علماً من أعلام بلاد الشام الذين تفخر بهم الأجيال وستظل تفخر بهم لسنوات طويلة قادمة.



ليلى الصباغ

(١٩٢٤-٢٠١٣م)



فقيدة المجمع، فقيدة بلاد الشام: ليلى الصباغ في حفل تأبينها

على الرغم من قناعتي بأن تأبين الميت قتل ثان له بدم بارد، لأنه تغييب متعمد مقصود له، بالحديث عنه حديث الغائب، وهو ما دفع الفيلسوف المعاصر جاك ديريدا إلى أن يستبدل بهذا الحديث وعداً بالكتابة عن الفقيد، فقد مضيت إلى حفل تأبين الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ، عضو **مجمع اللغة العربية بدمشق**، والأستاذة السابقة في قسم التاريخ في جامعة دمشق، وأنا أستشعر حضورها في نفسي: تواضعها الجم، وحديثها الهادئ، وإصرارها على العربية الفصيحة، واطمئنانها العميق إلى صواب ما أخذت به نفسها من جد ودأب وإخلاص في خدمة بلدها وأهلها وأمتها.

والحقيقة أن حفل التأبين، على ما يحمله أحياناً من **دعوة للمرء إلى تأمل ما انصرم من سنين العمر، وحسرة على ما ضاع من أيامه، وشوق وحنين إلى**

جميل بعض محطاته، فإنني أرى فيه **عزاء كبيراً** لمحبي الفقيد أو الفقيدة، وذلك **بالحديث عنه، واستحضاره بجعله محوراً لهذا الحديث،** صحيح أنهم لا يرونه من حولهم عندما يتلفتون، غير أنه حاضر بمشاغلته لهم، ومداخلته لكل ما يدور في ساحات وعيهم، ولا وعيهم، مداخلةً تراود نفوسهم عن نفوسهم، وتخالط أرواحهم، وتمس شغاف قلوبهم، إذ تكتفي بأجمل الذكريات، وأحبها، وعندما تغلب الخُضرة على مشهد العلاقات الإنسانية، فإن انتشار الحب والحنين والشوق في جنباته أمر متوقع بل مضمون، إذ ليس ثمة من فسحة لغيرها من المشاعر.

وكذلك فإن في حفل التأبين **تذكيراً للنفس وللآخرين بتراث الفقيد** الذي بات ينوب عنه ويؤكد حضوره الذي يقاوم به موت صاحبه، و"**ذكر الفتى عمره الثاني**" كما يقول شاعرنا العربي.

وقد كان حفل التأبين الذي اختير يوم الأول من رمضان المبارك فسحة له، **تذكيراً موثقاً لتراث الدكتورة الصباغ، قدمه رواة ثقاة، عرفوها حق المعرفة، إذ شاركوها على نحو أو آخر فسحة عمرها، أو بالأحرى جزءاً منها**، وهكذا انصرف حديث **رئيس مجمع اللغة العربية**، الذي بدأ الحفل، إلى سرد دقيق لمسعاها المعرفي، الذي بدأ بحصولها على الشهادة الثانوية بتفوق، ومضى بها إلى **جامعة القاهرة** لتنال منها شهادات الإجازة والماجستير والدكتوراه

بالتفوق ذاته (مع أنها عملت في أثناء ذلك في التدريس والتوجيه والإدارة في ثانويات دمشق ودار معلماتها)، وتلتحق بعد ذلك **بجامعة دمشق** مدرسة في قسم التاريخ، وترقى بعملها العلمي المتميز إلى مرتبة الأستاذية بوصفها تقديراً لجهد دؤوب مخلص في خدمة قضية التاريخ العربي الحديث: **تدريساً وإشرافاً على رسائل جامعية، وتأليفاً لمراجع عالمية في تاريخ الامة التي تفانت في خدمة أبنائها وبناتها.**

أما زميلها الأقدم الأستاذ الدكتور أحمد طربين فقد خصص كلمته للحديث عن **إسهامها في التأليف في مناهج البحث التاريخي**، وهو المقرر الذي آثرها به إثر إعارته إلى **جامعة الكويت**، وربما كان الأجمل في كلمته إقراره بتجاوز عملها لكل ما سبقها فيه، وبخاصة في انطلاقها، في تدبرها لمناهج البحث التاريخي، من التراث العربي، ولا سيما ابن خلدون، وشفعها ذلك بآخر مستجدات مناهج البحث التاريخي في الغرب، فقد يسرت معرفتها للغات الأجنبية اطلاعها المباشر عليه.

أما الأستاذ محمد وليد الجلاد فقد تناول دورها التأسيسي في **هيئة الموسوعة العربية** في أثناء توليها الإشراف على قسم الحضارة العربية الإسلامية فيها، وإعداد مساقاته وتوصيفها، مما شكل الأساس لما تلا ذلك من عمل

تجسد في مداخل على درجة رفيعة من الغنى والتنوع والدقة والتوثيق، **تعهدتها** بالعناية لاحقاً الدكتورة نجدة خماش من قسم التاريخ في **جامعة دمشق** أيضاً.

وأما الأستاذة الدكتورة نجاح محمد فقد رغبت أن تتحدث عن الفقيدة **حديث التلميذة التي اتخذت من أستاذتها أمثولة في الحياة والعلم معاً**. وذكرت كيف أن الدكتورة ليلى الصباغ كانت محط أنظار طالبات دار المعلمات منذ أن كانت مديرة لثانوية التجهيز الثانية للبنات، وكيف أنها ظلت محط أنظار طالبات قسم التاريخ في **جامعة دمشق**، وكيف أنها كانت مصدر إلهام للكثيرات منهن بجدها واجتهادها وأخلاقها، وتفانيها في أداء عملها، ومتابعة الإنتاج العلمي في مجال تخصصها.

وكان ختام المسك في الحفل حديث ابن أخي الفقيدة المهندس عامر الصباغ الذي استكمل صورة المرأة العربية/الأنموذج في العطاء المخلص، والطموح الذي لا يعرف الحدود، والتفاني في أداء الواجب، ومحبة الوطن والأهل.

لقد كان الحفل بحق عزاءً سَعِدَ من ظفر بحضوره بالحديث عن **واحدة من فضليات النساء الدمشقيات خلقاً، وسلوكاً، وعلماً، وعطاءً**، وكان كذلك **تذكيراً بتراث ينبغي تدبّره بمزيد من النقاش العميق، والتطوير الواعد، و النشر**

لما فيه من خير وفائدة، ولكن يبدو للمرء أن عمل الفقيدة في **دراسة الجاليات الأوربية**[1] **في مرحلة حرجة من تاريخ بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر** كان جديراً بوقفة تأمل، لأنه **عمل رائد أصيل يكشف عن الجانب الأهم في شخصية الدكتورة ليلى الصباغ**، وهو الرغبة عن السير في مستن الدروب، والمضي **في المنعرجات الصعبة بحثاً عن الجديد، واستكشافاً للآفاق الواعدة، بغرض إنتاج المعرفة التي يحتاجها المجتمع، والوطن، والأمة، ويتمكن بها من معرفة نفسه، ومعرفة الآخر، ومعرفة العالم من حوله.**

---

[1] انظر: د. ليلى الصباغ، ***الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العصر العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر***، (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٩) مجلدان يقعان في (١٠٧٦) صفحة.

ليلى الصباغ

وكتابها: الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العصر العثماني

تُعَدُّ ليلى الصباغ، بإجماع المعنيين بتاريخ البحث العلمي في جامعة دمشق، واحدة من أبرز أساتذتها في ميدان الدراسات التاريخية الحديثة، وفضلاً عن كونها من فضليات النساء الدمشقيات خلقاً، وسلوكاً، وعلماً، وعطاءً، فإنها تركت لنا تراثاً قيماً ينبغي تدبّره بالنقاش الجاد والعميق، والتطوير الواعد، والنشر لما فيه من خير وفائدة.

وعمل الدكتورة ليلى الصباغ في دراسة الجاليات الأوربية [1] في مرحلة حرجة من تاريخ بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر جدير بوقفة

[1] انظر: د. ليلى الصباغ، ***الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العصر العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر*** (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٩) مجلدان يقعان في (١٠٧٦) صفحة.

تأمل، لأنه **عمل رائد أصيل يكشف عن الجانب الأهم في شخصيتها العلمية،** وهو السعي إلى تجنب السير في مستتن الدروب، والمضي **في المنعرجات الصعبة بحثاً عن الجديد، واستكشافاً للآفاق الواعدة، بغرض إنتاج المعرفة التي يحتاجها المجتمع، والوطن، والأمة، ويتمكن بها من معرفة نفسه، ومعرفة الآخر، ومعرفة العالم من حوله.**

والحقيقة أن كتاب ***الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العصر العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر*** هو نص رسالة **ليلى الصباغ التي أعدتها بإشراف الأستاذ المرحوم الدكتور محمد أحمد أنيس والتي نالت عليها درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٦٦**، وتأخر نشرها حتى عام ١٩٨٩م، أي نحواً من ربع قرن، ومع ذلك فإنها لم تُتَجاوز من جانب الباحثين اللاحقين إلا في بعض جوانبها.

وتكمن أهمية الكتاب/الرسالة، التي تصدّرها إهداء، يشي بإيمان المؤلفة بدور المرأة في تنشئة الأجيال الجديدة من أبناء وبنات، يمضي على هذا النحو: "**إلى سيدتي الكاملة أمي**"، في:

- عنايته بفترة تكاد تكون مهملة تماماً من جانب الباحثين العرب والمسلمين، وهو ما يتضح من خلال النظر إلى مكتبة الكتاب التي تخلو من

أية دراسة سابقة لموضوع الرسالة، **وهي فترة مهمة جداً يمكن أن تشرح الكثير مما جرى في المشرق العربي في الفترات اللاحقة، خاصة وأنها شهدت ألواناً من التفاعل الغني والمتنوع بين المشرق العربي وأوربة على مختلف المستويات: الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.**

• **غنى مكتبته التي تضم مراجع بالعثمانية، والتركية، والفرنسية، والإيطالية، والإنكليزية، والألمانية، فضلاً عن الكتب التي سجلت رحلات السياح الغربيين إلى المنطقة، والتي تعدّ مصدراً غنياً للمعلومات عن حال الجاليات الأوربية في المشرق العربي في تلك الفترة.**

• وفضلاً عن كل ما تقدّم فإن الكتاب **يقدم مسحاً دقيقاً وموثقاً لجذور الاستعمار الأوربي للمنطقة العربية مما غفلت عنه الكثير من الدراسات العربية التي عنيت بالتمدد الاستعماري في الوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين.**

وعلى أي حال فإن من اللافت للنظر وعي الباحثة التام لأهمية موضوعها، وهي أهمية تتوضح في دواعي اختيارها له، والتي تشمل:

١. الكشف عن دور المشرق العربي في التطورات التي شهدتها مطالع العصور الحديثة، فقد كان هذان القرنان فسحة تفاعل حضاري أثارت في الغرب اهتمامات أدبية وفكرية وعلمية جديدة؛

٢. الكشف عن الجذور العميقة للاستعمار الغربي للمنطقة العربية؛

٣. الكشف عن تحول الفكرة الصليبية من مجالها الحربي إلى مجالها الثقافي والفكري؛

٤. دراسة الامتيازات "التي استندت إليها الدول في تثبيت جالياتها على أرض بلاد الشام والتي اعتمدت عليها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية؛

٥. تأكيد حقيقة أن الاتصال بين سورية، **التي تقصد بها الباحثة بلاد الشام أو سورية الطبيعية** (ص٨) [1] والغرب الأوربي لم ينقطع، بل إن سورية في هذين القرنين فتحت أبوابها أمام أوربة كلها دون تمييز؛

---

[1] تشير جميع الأرقام الواردة بين قوسين إلى صفحات الكتاب المذكور في الحاشية السابقة.

٦.الكشف عن جوانب اهتمام أوربة بالشرق والسعي إلى فهم طبيعته، وإلى دراسة أحوال سكانه، ولغاتهم وثقافاتهم ومجتمعاتهم وحضاراتهم وتقاليدهم، مما شكل بجملته ما بات يدعى بـ "سحر الشرق".

وإذا ما انتقلنا إلى محتويات الكتاب بجزئيه فإننا نجدها موزعة على تسعة فصول، وعلى ثبت موسع بالمصادر والمراجع، وعلى الفهارس العامة، وعلى ثلاث خرائط.

فأما الفصل الأول فقد خصصته المؤلفة لدراسة الأصول التاريخية للجاليات الأوربية في سورية (ص ص١٧-٧٠)، في حين خصصت الفصل الثاني لدراسة أحوال الجاليات الأوربية والامتيازات التي منحت للدول الأوربية منذ ضم العثمانيين لبلاد الشام إلى الدولة العثمانية (ص ص ٧١-١٩٣)، وأما الفصل الثالث فقد انصرفت الباحثة فيه إلى دراسة مسألة "**الامتيازات**"، والتي كانت "مسمار جحا" في تعامل أوربة لاحقاً مع تركة الرجل المريض. وأما الفصل الرابع فقد درست الباحثة فيه "إسكالات الشام" ص ص ٢٣٣-٣٤٢) والمقصود بالإسكالات **الموانئ والمدن الشامية التي أقام فيها الأجانب في القرنين السادس عشر والسابع عشر وكانت محطات لتجارتهم ونشاطاتهم المختلفة.**

وأما الفصل الخامس فهو معني بالحياة الاقتصادية للجاليات (ص ص ٣٤٣-٥٣٢)، في حين يعنى الفصل السادس بحياتها الإدارية (٥٣٣-٦٤٠)، ويعني الفصل السابع بالحياة الاجتماعية لهذه الجاليات (ص ص ٦٤١-٧٦٦)، وينصرف الفصل الثامن إلى تدبر الجاليات الدينية (ص ص ٦٦٧-٨٥٠)، ليختتم الكتاب بفصل موسع هو الفصل التاسع تجمل فيه المؤلفة نتائج إقامة الجاليات الأوربية في المشرق العربي: والتي تشمل النتائج الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية (ص ص ٨٥٢-٩١٦).

وأما النتائج الاقتصادية فقد رصدتها الباحثة في جوانب تطور الاقتصاد الشامي في الميدان التجاري والصناعي والزراعي، وفي جوانب من التطور الاقتصادي في مواطن الجاليات.

وأما النتائج الاجتماعية فقد شملت احتكاك الجاليات الأوربية بالمجتمع السوري، وهجرة المسيحيين من الريف إلى المدينة، وظهور طبقة برجوازية غنية من المسيحيين واليهود، فضلاً عن الانشقاقات المسيحية في المجتمعات العربية، وهجرات اليهود، ونقل بعض العادات والتقاليد و"حس الشرق" إلى أوربة.

وأما النتائج الفكرية فتمثلت بظهور نهضة فكرية في أوساط الفئات العربية المسيحية، وبدء الطباعة، وظهور تيارات فكرية جديدة في أوساط اليهود ذات طابع ديني- قومي، وانبثاق أدب الرحلات والمراسلات، والتوسع في تأثر الأدب الأوربي بالشرق، ونمو حركة الاستشراق، والاهتمام بتدريس اللغات الشرقية، ولا سيما اللغة العربية، والاهتمام بجمع المخطوطات العربية والإسلامية ونقلها إلى العواصم الأوربية.

وأما النتائج السياسية فإنها تتبدى في تنافس الدول الأوربية على النفوذ في سورية الطبيعية أو بلاد الشام، وتمهيد الجاليات الأوربية للاستعمار السافر لها في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وأما ثبت المراجع والمصادر فيشمل سرداً بالوثائق، وقائمة بالمراجع العربية والتركية، وأخرى برحلات السياح الأجانب، وثالثة بالمراجع الأجنبية، إلى جانب الفهارس العامة، وثلاث خرائط لحوض البحر المتوسط، والساحل الشامي وشرقي البحر المتوسط، والجزيرة العربية وجوارها الشرقي.

لقد نجحت الدكتورة ليلى الصباغ في كتابها المهم في تجاوز **صمت المؤرخين العرب عن الجاليات الأوربية في منطقة مهمة من العالم القديم هي قلبه، بلاد الشام (ص ١٥)، مثلما تجاوزت مشكلات تشعب البحث وتفرعه،**

وصعوبة الحصول على الوثائق الأصلية، وضرورة التنقل بين بلدان عديدة للاطلاع على ما في مراكز الوثائق فيها من مستندات، وعلى تنوع اللغات التي تجب مراجعة تلك الوثائق الكثيفة بها (ص ص ١٥-١٦)، وقدمت عملاً ممتازاً ينتمي إلى الطبقة العالية من طبقات البحث العلمي، هو في نهاية المطاف صدقة جارية عن روحها النبيلة، لأنها قدمت بحق علماً يُنتفع به وتفيد منه الأجيال التي تنحني لذكراها الطيبة، إقراراً بفضلها، وإجلالاً لخدماتها الجلى لهذه الأمة، التي تفخر بأنها أمة من حَمَلَة الرسالة.





عبد الكريم الأشتر

(١٩٢٩-٢٠١١م)



الأشتر الأديب

الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر رجل وهب نفسه للأدب وأمضى سنوات عمره، التي نسأل الله عز وجل أن يمتد بها لنسعد بالمزيد من إنتاجه ويسعد فيها بما يحب وبمن يحب، يقدم ذوب روحه ونفسه وعقله بين يدي هذا الفن الجميل الذي يتخذ من اللغة الطبيعية أداة له.

قد يرى فيه بعضهم دارساً أو بالأحرى شارحاً للنصوص الأدبية يقاربها بحساسية مرهفة، وبصيرة نافذة، ومعرفة خبيرة، وهم محقون في ذلك ويستطيعون بسهولة أن يدللوا على رأيهم هذا بما قدمه الأشتر من قراءات للأدب العربي قديمه ووسيطه وحديثه، شملت أجناسه الأدبية الرئيسية: الشعر والقصة والمسرحية، وهي قراءات يصعب على المرء أن ينازعه في سلامة توجهها، أو في عمق تفحصها، أو في سوية حصيلتها.

وقد يرى فيه بعضهم الآخر مؤرخاً للأدب العربي له منظوره وأولوياته واهتماماته وآراؤه وأحكامه في هذا الأدب، وهم محقون في ذلك، ودليلهم ما أخرج الرجل للناس مؤخراً من أحاديثه في الشعر والشعراء من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث التي حملت عنوان **في ديوان العرب** صدر في ثلاثة أجزاء دسمة.

وقد يرى فيه غيرهم الحجة الثقة في الأدب المهجري ولا سيما نثره الأمريكي الشمالي، وهم محقون في ذلك، وبخاصة عندما يشيرون إلى كتابيه **في النثر المهجري، وفنون النثر المهجري** اللذين أصبحا من مصاف الكتب اللازمة التي لا يستغني عنها دارس الأدب المهجري، وكتابه **أوراق مهجرية** الذي صدر قبل أعوام، فضلاً عن مقالته عن الأدب المهجري التي خص بها **موسوعة الإسلام**.

وقد يرى فيه آخرون ناقداً للنقد الأدبي العربي الحديث، وقارئاً خبيراً له، ويدللون على ذلك بكتابه "**معالم في النقد العربي الحديث**" الذي خص ثلاثة من روائعه هي **الديوان، والغربال، وفي الميزان الجديد**، وبأحاديثه ومقالاته ومسامراته عن أبرز نقاد العرب في القرن العشرين؛ مندور الذي كان صحبه سنوات طويلة في القاهرة، وتتلمذ على يديه، وتأثر به أيما تأثر، وكان له نعم

التلميذ الوفي لأستاذه، وبخاصة في شرحه للنصوص الذي أخذه الأستاذ عن غوستاف لانسون نفسه.

وقد يرى فيه غيرهم المحقق المدقق المحكك المفتون بالنص التراثي، شعراً ونثراً، والمتفاني في خدمته: صناعة، وتحقيقاً، ودرساً، ويشيرون في هذا السياق إلى صناعته ديوان دعبل ودراسته لشعره، وإلى تحقيق كتاب **الاعتبار** لأسامة بن منقذ.

نعم وقد يرى الناس في أبي محمد كل هذا أو بعضه ولكني -فيما خبرته من الرجل ونتاجه- أود أن أزعم أن الأشتر في عمق أعماقه أديب من طراز فريد، وأنه لا يكون نفسه حقاً إلا عندما يمارس كتابة الأدب، هذا الفن الجميل، أو هذا الضرب من الإنشاء اللغوي الذي تسوده الوظيفة الجمالية، فيأتي سحره على قارئه، ويؤثر فيه ملامساً عقله وروحه ونفسه بل شغاف قلبه، فيعرف صاحبه إذ يشي النص بمنشئه على نحو يصبح معه القول إن **الأسلوب هو الرجل**، يحمل بصمة قلبه وروحه ونفسه وعقله الخاصة به والتي يصعب تقليدها أو الاتجار بها من جانب الآخرين إذا ما أخذوا بوهم محاكاة السهل الممتنع، نثر أبي محمد الأشتر.

يعرف المؤمنون بسيماهم، ويعرف الكتّاب بأساليبهم، ومثلما يعرف الناس زكريا تامر، ومحمد الماغوط، وعبد السلام العجيلي، ويوسف إدريس، وجمال الغيطاني، ويوسف القعيد بكتاباتهم، حتى عندما لا تحمل تواقيعهم، فإنهم يعرفون أبا محمد، عبد الكريم الأشتر بخواطره ومقالاته.

نعم أبو محمد أديب من طراز سام تألق في كتابة جنس أدبي فرعي هو **الخاطرة**، المستولدة من المقالة التي برع في إنشائها أيما براعة، وصدر في إنجازاته فيها، والتي سيذكرها له تاريخ الأدب العربي الحديث في سورية، عن أمور لم تتيسر لغيره من دارسي الأدب ومن قرائه هي:

- تمكنه من أداة فنه -اللغة الطبيعية- بوصفها أداة تفكير من جانب، وأداة تواصل مع الآخر والموروث القومي والإنساني، وأداة تعبير عن الذات والهوية الفردية والجماعية، وأخيراً أداة تأثير في "الآخر" – القارئ/ المتلقي الذي كان باستمرار غاية الغايات، وكان التسامي به الهدف الأكبر لمسعى أبي محمد الأشتر.

- تمكنه من أدبه القومي قديمه ووسيطه وحديثه، شعره ونثره، وخبراته الواسعة فيه: دراسة وتدريساً، وبحثاً، وتأليفاً، وتدبراً يقربه من العقول والقلوب.

- وعيه الفني الشديد لتجربة الكتابة عامة، وكتابة المقالة والخاطرة بشكل خاص.

- تذوقه الحار للحياة وخبرته الواسعة بها وعنايته التي لا تماثلها عناية بفتاتها الذي لا تلتفت إليه غالبية الكتاب عادة، وتساميه بها لتغدو شأناً مهماً في حياة القارئ المتلقي، مثلما هي شأن مهم في حياة كاتبها صاحب الرسالة.

بيني وبين عبد الكريم الأشتر

المعاصرة حجاب:

قد تكون المعاصرة حجاباً، وهي كذلك في كثير من الأحايين عندما تحول بين المرء وبين تقدير معاصريه على نحو موضوعي، والإفادة منهم، أو التعاون معهم، أو إقامة أي تواصل إيجابي ينجم عنه تفاعل يغتني به المتعاصرون، ويُغنوا، بدورهم، حقل تخصصهم أو مجال اهتمامهم أو دائرة عملهم، ويضيفوا إليه، كما أضاف المتقدمون.

الزمالة حجاب:

قد تكون الزمالة حجاباً، وهي كذلك في معظم الأحايين عندما يغلب عليها الحسد، وتسودها مشاعر القلق من حتمية التنافس في ميدان واحد. ذلك

أن نزعة التمركز حول النفس تحول في الغالب دون الاغتناء بما لدى "الآخر-الشريك" في العمل، من آراء وأفكار ووجهات نظر ربما تباين ما لدى "الأنا" في وجه من الوجوه من آراء وأفكار ووجهات نظر، وتخلق الحواجز بين شركاء في عمل إنساني يغتني، من حيث المبدأ بالتنوع وبما ينطوي عليه هذا التنوع من إثارة وإلهام.

التلمذة حجاب:

قد تكون التلمذة حجاباً، وهي كذلك في الغالب، عندما يغلب على طرفيها: الأستاذ والتلميذ كليهما، الشيخ والمريد معاً، هوس التماهي Identification الذي يحفز التلميذ باستمرار على أن يكون على شاكلة أستاذه، نسخةً منه في كل شيء، ويحفز الأستاذ باستمرار كذلك على أن يسعى إلى خلق المثيل في كل من يجلس بين يديه من تلامذته، أو، إذا استخدمنا لغة الهندسة الوراثية، استنساخ أساتذة آخرين من الأستاذ الأصل، تسعى بدورها إلى استنساخ أساتذة آخرين في كل فسحة تجتمع فيها بتلميذ. ذلك أن النجاح الأمثل للأستاذ يقاس، فيما يبدو لهذا الضرب من الأساتذة والتلامذة عندما ينخرطون في أي موقف تعليمي، بمقدار ما ينتجه الأستاذ من نسخ عنه،

أو ما يعيد إنتاجه من ذاته التي تتكرر في تلاميذه. وإذ تغيب النظرة النقدية الطامحة أبداً إلى بلوغ هامش الأفضل في جميع وجوه الحياة، يمضي التلاميذ في قول المعاد والمكرور، موقنين بأن الأول لم يترك للآخر أي شيء.

الاهتمامات المشتركة حجاب:

قد تكون الاهتمامات المشتركة حجاباً، ولا سيما في ثقافتنا العربية الحديثة، التي يغلب عليها عبادة "الأنا" و"استبعاد الآخر"، والتي بات كثيرون من المسهمين المعاصرين فيها يؤمنون بوجود وجهتي نظر فقط: واحدة خاطئة دائماً، وأخرى هي وجهة نظرهم التي ينبغي أن تسود وتهيمن بدواع "موضوعية" فيما يزعمون لأنفسهم وغيرهم- دواعٍ يقررون هم وحدهم "سماتها الموضوعية"، التي تسمو بآرائهم وتحطّ من آراء غيرهم.

نعم قد تكون المعاصرة حجاباً، وقد تكون الزمالة حجاباً، وقد تكون التلمذة حجاباً، وقد تكون الاهتمامات المشتركة حجاباً، ولكنها لم تكن في يوم من الأيام تلك الحجب التي يمكن أن تحول بيني وبين الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر: أبي محمد الذي كان المعاصر، والزميل، والأستاذ،

والشريك في الكثير من الاهتمامات. أما الذي بدد هذه الحجب التي كان يمكن أن تقوم بيني وبينه فهو طبيعة العلاقة التي نشأت بيننا ونمت وتطورت، فأينعت في نفسي أطيب الثمار، ولعلها -فيما أرجوه- كانت مثمرة وإيجابية بالدرجة ذاتها في نفس أبي محمد الذي يلذّ لأذني سماع صدى كنيته كلما تذكرت لقاءاتنا الأسرية ولا سيما عندما كان يسكن في دمشق.

لقد حوّلت طبيعة علاقتنا، التي بدأت منذ نحو من ثلاثة عقود عندما التقيته للمرة الأولى في قسم اللغة العربية في مطلع السبعينات بعد عودته من الجزائر معاراً إلى جامعاتها، وكنت إذ ذاك معيداً في القسم أساعد رئيسه الأستاذ الدكتور حسام الخطيب في إدارته وأسعى بين يديه، وبينه وبين أساتذة القسم أشرف بخدمة العلم وأهله، **أقول لقد حوّلت طبيعة هذه العلاقة المعاصرةَ إلى حوار بين جيلين تكوّنا ثقافياً على نحو مختلف، واجتمعا على حب العربية وأدبها وما أنتج فيها من ثقافة على مرّ العصور؛ وحوّلت الزمالةَ إلى حوار بين تقليدين علميين مختلفين في الدرس الأدبي: تأريخاً للأدب، ودراسة لنصوصه؛ وحوّلت التلمذة (وقد غلبت عليها بدايةً تلمذة السطور، وطغت عليها لاحقاً تلمذة المجاورة) إلى رعاية وحرص وتشجيع من جانب الأستاذ-الزميل ليزدهر بها جميعاً عمل التلميذ-الزميل الذي كان يُحفّز دائماً ليحقق ما**

فات أساتذته، ويمضي في رفع راية ما نذروا أنفسهم له من رسالة. وحوّلت التنافس الذي ينطوي عليه الاهتمام المشترك (بالأدب المهجري، والنقد العربي الحديث، والأدب العربي الحديث ولا سيما في فترة الإحياء وما تلاها من فترة تأسيس وبناء) إلى تكامل يسعى إلى استغراق جوانب هذا المشترك.
وهكذا وجدنا الزميل-التلميذ يسعى إلى المضيّ باهتمام الزميل-الأستاذ إلى مدى أبعد، **فيعنى بالأدب العربي في المهاجر الجديدة ولا سيما أسترالية، مثلما يعنى بالأدب العربي المكتوب بغير العربية، ويعنى بالنقد العربي المعاصر وتفاعله مع التقاليد النقدية الغربية والشرقية، وينصرف إلى تدبّر وجوه التفاعل بين الأدب العربي على مرّ العصور مع آداب العالم في مسعى للإفادة من هذه التجربة الفريدة في إغناء نظرية الدرس المقارن للأدب.**

نعم لقد حوّلت طبيعة علاقتي بأبي محمد هذه الحجب إلى مصادر غنى لعملي وأبحاثي ودراساتي المختلفة التي تيسّر لي إنتاجها على مدى العقود الثلاثة الأخيرة، وإذ أشير اليوم إلى حضور أبي محمد في حياتي الذي كان كله خيراً، فإني أودّ أن أؤكد أنه كان بحق "الكلمة الطيبة" التي شبهها الله بالشجرة الطيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٥].

عبد الكريم الأشتر الحاضر الغائب

اجتماعنا اليوم، أيتها السيدات، أيها السادة، اجتماع خير يتلو شهر الخير والبركة، ويأتي بعد عود ميمون لعيد الفطر السعيد، أعاده الله عليكم وعلى الأمة بأفضل مما عليه حالنا اليوم، وليس الصبح ببعيد عن مقصد من يعمل وفي قلبه وعقله الأهل والوطن، فقل اعملوا لحال أفضل، "فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون".

والخير في اجتماعنا هذا لا يأتي فقط من غايته النبيلة والطبيعية في آن، وهي تكريم عالم جليل من علماء هذا الوطن الذي يشمخ برجاله العاملين المخلصين، ولا يصدر وحسب عما ينطوي عليه من قيم أبرزها الوفاء الذي يكاد يُرَشّد في أيامنا هذه على نحو غريب، ونحن أحوج ما نكون أن نجعله المطعمَ والمشرب اليوميين لأن الوطن لا يعمر إلا به. وهل يقوم وطن بغير رجال أوفياء ينذرون حياتهم لبناء مجده ورفعته، ووطن وفيّ لهم، يُنزلهم في نفسه

المنازل التي يؤهلهم لها عملهم وإسهامهم في بنائه، ويفسح لهم في جنباته بمقدار عطائهم له ولأهله؟ ولا يتأتى كذلك من ترسيخ سنّة حسنة نرجو أن تشيع فينا وهي تكريم أحيائنا والعناية بهم وبآثارهم وهم بين ظهرانينا، لأن في ذلك تحفيزاً، نحن بأمس الحاجة إليه، للأجيال الجديدة على أن تضع في عقلها وقلبها أن الوطن وفيّ لأبنائه يقدّر عطاءاتهم، وأن العرف لا يذهب بين الله والناس.

ولا شك أننا جميعاً سعيدون بهذا الخير الذي يعقب عيد الفطر السعيد. ولكن سعادتنا، أيتها السيدات، أيها السادة، تصدر عما هو أعمق من كل هذا الخير، لأنها تتأتى من استعادتنا، ولو لساعة وبعض الساعة، لأستاذ وصديق وزميل لم نعهد فيه إلا الخير والنبل والعطاء، وهو عبد الكريم، ولكل من اسمه نصيب. ولكن هل يتقاعد الأساتذة، وهل يغيبون عن مؤسساتهم عندما يغادرونا بعد أن أدّوا ما أدّوا من الرسالة التي نذروا أنفسهم لها؟ وهو تساؤل يشبه تساؤلاً نظيراً له هو هل يمكن أن يكون الكاتب في إجازة؟ وبالطبع فإن الحديث ينصرف إلى الأساتذة الذين تعرف الجامعة بهم والكتّاب الذين تنسب إليهم فسح الزمان والمكان.

لقد تقاعد عبد الكريم الأشتر من جامعة دمشق ولكنه لم يغب، ولن يغيب عنها، ولا عن هذا القسم الذي سعد به وبعطائه أكثر من ربع قرن، لأن الجامعة

وكلياتها وأقسامها لا تقوم إلا بطيّبي القلوب من أمثاله والذين يحملون عادةً "همّ الأحبة إن غابوا وإن حضروا". ولأن حال عبد الكريم الأشتر تشبه حال فيروز عندما شدت لدمشق المجد المكللة بالغار والنار معاً بعد حرب تشرين المجيدة:

يا شام لبنان حبي غير أنني يوم أودّع الشام تغدو حبّي الشام

لقد كان عبد الكريم الأشتر حاضراً باستمرار في هذه الجامعة **من خلال كتبه الصوى** التي تتلمذت عليها أجيال عديدة في قسم اللغة العربية وآدابها، والتي لم تستطع بعد هذه الأجيال أن تتجاوزها لما انطوت عليه من أصالة وعمق وغنى.

لقد كان عبد الكريم الأشتر حاضراً باستمرار في هذه الجامعة من خلال تلاميذه الذين يتابعون تأدية رسالته، ولعلهم يسعون مثله إلى أن يأخذوا أنفسهم بما أخذ نفسه به من تسام وتعفف واحترام للنفس والغير ومحبة للأهل والوطن.

لقد كان عبد الكريم الأشتر حاضراً باستمرار في هذه الجامعة من خلال القيم التي جسدها والتي بتنا نذوب حنيناً إليها مثلما كنا باستمرار نتوق لاستعادته بيننا جسداً وروحاً، وهو الذي لم يغب عن القلب وعن البصيرة في يوم، وإن كان قد آثر حلب بأخلاقه الزَهَر، وروحه القدس، فبات مريدوه

يشتاقون إليه شوقَ اليومِ والأمس لأبي علي الحسن بن وهب صديق أبي تمام الذي قال فيه:

يشـــتاقه مـــن جمالـــه غـــده   ويكثـر الوجـد نحـوه الأمــس

نعم يا أبا محمد، الأستاذ والصديق والزميل والكاتب، إننا لفي شوق دائم لك، وفي حنين لا ينفد لما تجسّده من أنس ورقة وشفافية ومعرفة، وإذ تصافحك العيون والقلوب والأكف في صباح هذا اليوم فإن الألسنة تنطلق بالدعاء لك بطول العمر وموفور الصحة والسعادة والقوة، لنزداد غنى، وسعادة، ومعرفة ، بإنتاجك **أيها الصانع الأمهر** il miglior fabro ،على حد قول إليوت، الذي كنت -وفي كل ما خطّه يراعك مما فاضت به نفسك وقلبك وعقلك- **المثال الذي أوصى به هوراس** في الجمع ما بين الفائدة والمتعة ، وكنت -في كل ما جسّدته من قيم وأخلاق- آية " **الأدب الرفيع** " الذي تتسامى إليه العقول والأفئدة.

ودمت أبداً برعاية الله وعنايته وحفظه.



جودت الركابي

(١٩١٣-١٩٩٩م)



جودت الركابي

(١٩١٣- ١٩٩٩)

فارس المعرفة عندما يترجّل[١]

وأخيراً ترجّلت يا أبا عمّار. فارساً مغواراً في دولة القلم التي اهتزت وربتْ إذ ترجّلت، بعد أن لم يبق في سيفك موضع لم يُشطب، وكيف للسيف أن يزدرى "إن كان ذا شطب"؟ .. أمضيت العمر وأنت تشهر سيف المعرفة تطهر به وطنك الصغير والكبير من الجهل أنّى حللت. تشحذه في الوطن بما يتيسر لك

[١] نص الكلمة التي ألقاها صاحب هذه السطور في الأيام الثقافية التي أقامها معهد ثربانتس (المركز الثقافي الإسباني) بدمشق، بالتعاون مع كلية الآداب في جامعة دمشق، واتحاد الكتاب العرب بدمشق، تكريماً لجودت الركابي، ونايف بلّوز، وفهد عكام، وعثمان يحيى في الفترة ما بين ٢٨ حزيران و١ تموز ١٩٩٩.

من معرفة في "مكتب عنبر"، وغيرها، ثم تختبره بدايةً، في دير الزور لعامين كاملين، ولاحقاً في دمشق، قبل أن توفد عام ١٩٣٨ إلى فرنسة، فتمضي به إليها ليغدو أكثر مضاءً، تحدّ شفرته بإجازة في الآداب من جامعة باريس عام ١٩٤١، وبدكتوراه دولة في الآداب عام ١٩٤٧. وتعود من جديد لتوظيفه في الارتقاء بأبناء وطنك الصغير سورية في المدارس الثانوية ودور المعلمين، تدرِّسهم حيناً، وتراقب تدريسهم موجهاً أول للغة العربية حيناً آخر. وما تلبث أن تخصَّ كلية التربية بحصيلة فكرك فتمضي إليها تعلِّم الجيل تلو الجيل كيف يتعلم ويعلم. وتتألق فيها أستاذاً وعميداً وباحثاً من طراز آمن بالمعرفة فجعل همّه إنتاجها ونشرها وإخراجها للناس ليتداولوها ويتدبروا ما فيها من خير؛ والعلم يزكو على الإنفاق.

وتخرج للناس بداية رسالتك بالفرنسية في باريس عام ١٩٤٩ تحت عنوان "الشعر الدنيوي في العصر الأيوبي وممثلوه الأساسيون"[١] بتقديم ريجيس

---

[١] انظر:

Jawdat Rikabi,

La poésie Profane sous Les Ayyubides et ses Principaux Représentants Librairie Orientale et Americaine (G. P. Maisonneuve et Co. Paris, 1949).

بلاشير، المستشرق الفرنسي المعروف؛ وتتبعها في العام نفسه بتحقيقك الذي عُرِفَ به شرقاً وغرباً ***"دار الطراز في عمل الموشحات"***[1]، لابن سناء الملك، والذي غدا لنصف قرن المصدر الأساسي في دراسة الموشحات العربية في الوطن العربي وخارجه.

وبالطبع فإن دارسي الأدب الأندلسي يعرفون دوره المحدِّد في الكتابات العربية المتصلة بالموشح.

ولكن ربما لا يعرف إلا القليل من العرب أن هذا التحقيق قد استثمر خير استثمار من قبل المستشرقين من أمثال ألن جونز، ودريك ليثام، وجيمس مونرو، وروجر بوس، وغورتن، وحسب المرء أن يشير في هذا المقام إلى كتاب ليندا فيش كومبتُن الموسوم بـ:

"الشعر الغنائي الأندلسي وأغاني الحب الإسبانية الأولى :الموشح وخرجته"[2]: الذي صدر عن مطبعة جامعة نيويورك عام ١٩٧٦، والذي يستند إلى تحقيق الركابي لكتاب ابن سناء الملك ويترجم أجزاء كبيرة منه.

[1] وقد صدر في عدة طبعات كان آخرها عن دار الفكر (دمشق، ١٩٨٠).

[2] انظر:

ولا تلبث -يا أبا عمّار- أن تقدّم للمكتبة العربية كتابك الرائد "في الأدب الأندلسي" الذي نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٦٠ والذي تتلمذت عليه أجيال وأجيال تنهل منه وتعلّ، مثلما كان شأن كتابك الآخر عن "الطبيعة في الشعر الأندلسي"، الذي صدر عام ١٩٧٠، وكتبك الأخرى التي تلته عن الأدب العربي، ولا سيما في عصور الدول المتتابعة التي ظُلِمَتْ بجهلنا بها، وكان لابد من سيفك الفيصل ليستأصل فينا هذا الجهل، وينتقل بنا من التفكير بها عُصور انحدار إلى تقريرها عصور ازدهار[١].

وتحالُ على التقاعد عام ١٩٧٤، (وهل يحالُ المفكر أو المثقف في يوم على التقاعد؟ وهل يمكن لأي منهما أن ينعم حقاً بأية إجازة؟)، فتتوجه غرباً إلى الجناح الغربي من وطنك الأكبر، إلى الجزائر، ومدينتها العريقة قسنطينة، لتنفق فيها الأعوام الطوال، وتتابع فيها رسالتك في استئصال الجهل في مغرب الوطن العربي بعد أن أسهمت ما وسعك الجهد والوقت والعلم في مقارعته في

Linda Fish Compton, *Andalusian Lyrical Poetry and Old Spanish Love Songs: The Muwashshah and Its Kharja* (New York University Press, New York, 1976).

[١] الإشارة إلى عنوان كتاب الدكتور جودت الركابي: "***الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار***"، الذي ظهرت طبعته الأولى عن دار الفكر بدمشق عام ١٩٨٢، وظهرت طبعة منقحة فريدة منه عام ١٩٩٦.

المشرق، تدرِّس، وتعرِّب العقول والنفوس، وتحفز الأقلام على الكتابة، والتأليف، وتشرف على عشرات الرسائل في الأدب الأندلسي وغيره.

وتعود ثانية إلى الوطن، وقد جددتك الغربة، وصقلتك التجربة، ونقّاك التسامي الدائم نحو المعرفة. تعود لتسهم من جديد في الكتابة والبحث ومناقشة الرسائل والتأليف والإشراف على تآليف الآخرين من خلال عملك في دار الفاضل مستشاراً ومشرفاً.

تعود إلى الوطن، والوطن في قلبك أنّى ارتحلت،

والعربية حبّك الأول مهما تنقل الفؤاد،

والطلاب مقصدك تتعهدهم جيلاً بعد جيل،

وتعدّهم نسقاً يتلو النسق،

وتوجههم ليمضوا في المعركة تِلْوَ المعركة،

وأَمَلُكَ كسب الحرب ضد الجهل، فالانتماء الحق للعصر هو انتماء المعرفة، والمعرفة قوة، والقوة عزة، ولا سبيل إلى ضمان عزة الوطن وقوته إلا بها.

نعم، المعرفة التي ما فتئت تقتبسها ستة عقود ونيّف،

نعم، المعرفة التي ما فتئت تنشرها ستة عقود ونيّف؛

وكان نسبي إليك هو المعرفة يا أبا عمّار، فقد عرفتك أول ما عرفتك أستاذاً، وما جلست بين يديك مذ عرفتك إلا تلميذاً، أقبس عنك المعرفة والأدب والخلق والوفاء، وإذ نجتمع اليوم آية وفاء، فإنما لأنك، يا أبا عمّار، أهل لكل وفاء، وكل ما نرجوه أن يكون ملتقانا هذا أول القطر، لأن جودت الركابي أهل لكل خير، ولا سيما أنه غرس فينا الكثير منه.



عمر موسى باشا

(١٩٢٥-٢٠١٦م)


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

عمر موسى باشا فقيد بلاد الشام

الأستاذ الدكتور عمر موسى باشا (أبو مازن كما كان يحب أن يدعى)، الذي فقده أهله وأحباؤه مؤخراً، وخسره الأدب العربي، ولا سيما أدب بلاد الشام، وخسرته سورية، والأمة العربية، بوصفه واحداً من أبرز دارسي آخر ما تبقى لها من مظاهر وحدتها: أدبها الذي يُنبي عن روحها، ويفصح عن مكنوناتها: آلاماً وآمالاً وطموحات،

- أستاذ لا يُنسى بلهجته المتميزة، وضحكته التي كان يطلقها بمقدار، وحرصه على أداءِ ما كان يراه واجباً مقدساً تجاه طلبته في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة دمشق على مدى نصف قرن.
- وباحث جسور لا يتهيب استكشاف الفسح المظلمة بجهلنا بها، لينوِّرنا بما يجود به بحثه وتنقيبه عن كنوزها التي تدلل على ظلمنا لها عندما نسبنا إليها "الانحدار" أو "الانحطاط"، وليسمها بعد ذلك بمصطلح

الدول المتتابعة، الذي يفصح عن وَصف محايد لا يحمل أي انتقاص لآدابها؛

- وإداري خبير تسنم رئاسة قسم اللغة العربية وآدابها سنوات طويلة (كلف أثناءها بإدارة قسمي المكتبات والصحافة إبان نشأتهما) قام فيها بخدمة زملائه وطلابه ما وسعه الوقت والجهد، والاجتهاد الذي قد لا يشاركه فيه الآخرون.

غير أنه قبل كل ما تقدم الصديق الرفيق الذي سرعان ما يعفو وينسى غضبه أو استياءه من زميل أو صديق، ويلقاه وكأن ذلك مجرد صفحة طواها حِلمه وحبه ودماثته.

عرفته أول ما عرفت أستاذاً للعروض في السنة الأولى من دراستي في القسم (وما زلت أحتفظ بنسخة مخطوطة من محاضراته فيه)، يبذل غاية جهده في شرح مبادئ هذا العلم وفي تطبيقها على نماذج يعرضها على طلبته، ويشاركهم في تدبّرها على السبورة في مبنى الكيمياء من كلية العلوم.

وعرفته بعد ذلك من خلال كتابه الضخم أدب الدول المتتابعة في طبعته الثانية التي حملت عنوان ***الأدب في بلاد الشام: عصر الزنكيين والأيوبيين***

والمماليك[1] (فضلا عن كتابه الرائد ابن نباتة) والذي قرأته واغتنيت بمحتوياته التي شغفت بها محاضرات الأستاذ نعيم الحمصي الممتعة والمفيدة التي أخرجها لاحقاً كتاباً مفيداً حمل عنوان ***نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه***[2].

وعرفته في سنوات إيفادي رئيساً للقسم أتواصل معه بتقاريري نصف السنوية عن سير دراستي في جامعة أكسفورد، ويرسل لي تشجيعه وتمنياته بالتوفيق والنجاح مع شقيقتي التي كانت تتابع شؤوني الإدارية في فترة غيابي عن القطر.

وعرفته بعد كل ما تقدم زميلاً خبيراً لا يبخل علي بنصحه وتوجيهاته التي تنضح بخبرته الحياتية والجامعية والعلمية. وكان كثيراً ما يتحمل عناء إيصالي

---

[1] انظر: الدكتور عمر موسى باشا، ***الأدب في بلاد الشام: عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك***، ط ٢، (المكتبة العباسية، دمشق، ١٩٧٢-١٣٩١ﻫ). والكتاب في الأصل هو رسالته لدرجة الدكتوراه التي نالها من جامعة القاهرة عام ١٩٦٤ وأشرف عليها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدهواني وناقشه فيها الأستاذ الدكتور شوقي ضيف والأستاذة الدكتورة سهير القلماوي، ومنح على إثرها درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الثانية.

[2] انظر: نعيم الحمصي، ***نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه*** (جزءان) (منشورات جامعة تشرين، اللاذقية، ١٩٨١-١٩٨٢).

إلى منزلي قرب مشفى حاميش، إذ كان يشفق علي من متاعب المواصلات العامة ولا سيما وقت الظهيرة، ويصرّ على الاطمئنان عليّ كالأب تماماً.

وعندما كنا نختلف كنت أستعين دائما على أبي مازن برفيقة عمره أم مازن، كما كنت أستعين أحياناً بصداقتي لعديله الدكتور إبراهيم عثمان الذي كان يوصيه بي، وإن كان كل ذلك لم يحل بيننا وبين اختلاف الرأي في العديد من القضايا، والذي كان، فيما يبدو، ملح علاقتنا، الذي تزداد نسبته أحياناً قليلة، فتجعلنا نعاف ما استقر فيه من طعام، وتعتدل في معظم الأحيان، فنقبل عليه بكل نهم ولذة.

ومما أذكره في هذا المقام أن خلافاتنا لم تفسد ما بيننا من ودٍّ عميق، وعندما شكا لي أن الجامعة اعتذرت عن عدم إصدار طبعة مزيدة ومنقحة من كتابه الجامعي ذي الجزئين: ***الأدب في العصر المملوكي***، ***والأدب في العصر العثماني***، اقترحتُ عليه أن يعيد النظر فيما زاده ونقحه فيهما، وأن يعدّهما ليكونا مجلدين مستقلين يمسحان فترة مهمة من فترات الأدب العربي وهما: الفترة المملوكية والفترة العثمانية، تنشرهما **دار الفكر**، التي تعد من أهم دور النشر في سورية.

وإن نسيت فلا أنسى سعادتَه بصدور الطبعة الجديدة من الكتابين، وسرورَه التي غمرت قسمات وجهه، وهو يمسك بالمجلدين المذهبين [(١)] باسمه، وبِشرَه الذي أراده أن يعبر من خلاله عن امتنانه لنصيحة زميل حديث العهد، والذي شفعه بتقديم نسخة موقّعة من الكتابين، كثيراً ما عدت إليها في أبحاثي ومحاضراتي، مردداً بيني وبين نفسي: إن كان زامر الحي لا يطرب القوم، فهو مطرب لمن يحترم العلم.

وعندما كلفني رئيس تحرير مجلة ***البحث الأدبي Literary Research*** ، البروفيسور جون برت فوستر John Burt Foster كتابة مقالة حول مجلدي ***"الأدب في بلاد الشام"*** [(٢)] اللذين قمت بتحريرهما والإشراف على نشرهما مع

---

(١) انظر: الدكتور عمر موسى باشا، ***تاريخ الأدب العربي: العصر المملوكي***، ط ١، (دار الفكر،دمشق، ١٩٨٩)، وأعيدت طباعته عام ١٩٩١؛ ***تاريخ الأدب العربي: العصر العثماني***، ط ١، (دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩)، وأعيدت طباعته عام ١٩٩١.

(٢) انظر: عبد النبي اصطيف، ***الحركة الأدبية في بلاد الشام: المجلد الأول تاريخ*** (منشورات الأمانة العامة لاحتفالية **دمشق عاصمة الثقافة العربية**، دمشق، ٢٠٠٨ م)؛ تحرير وإشراف على النشر بالاشتراك مع محمود ربداوي ووهب رومية وعلي أبوزيد وفوزية زوباري؛ ***الحركة الأدبية في بلاد الشام: المجلد الثاني مختارات*** (منشورات الأمانة العامة لاحتفالية **دمشق عاصمة الثقافة العربية**، دمشق، ٢٠٠٨ م)؛ تحرير وإشراف على النشر بالاشتراك مع محمود ربداوي ووهب رومية وعلي أبوزيد وفوزية زوباري.

ثلة من كبار أساتذة الأدب العربي قي القطر العربي السوري، لتنشر في المجلة التي تصدرها **الرابطة الدولية للأدب المقارن**، قدمت للحديث عن هذا المشروع الرائد الي صدر بمناسبة اختيار دمشق عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٨، بإشارة مقتضبة لجهود أبي مازن في هذا المجال، اعترافاً بفضله وريادته[1]، لأن الوفاء في نظري أهم قيمة تحكم أي بحث علمي، ومن يتجاهلها يتخلى مجاناً عن ثقة قرائه، ومن ثَم يفقد احترامهم له، فضلا عن تضحيته بمصداقية ما ينتج من معرفة.

رحم الله أبا مازن، وأسكنه فسيح جناته على ما قدمه من خدمات جليلة لأمته ووطنه، وألهم أسرته الصغرى، والكبرى، الصبر والسلوان. ولعل أهم سلوان لنا جميعاً ما خلفه لنا من علم ينتفع به، ولا ننسى أن ذكر الفتى عمره الثاني، وقد ترك لنا أبو مازن الكثير مما يمكن أن نتذكره به، وما يمكن أن نضيفه إلى عمره الثاني.

---

[1] انظر نص المقالة في:

Abdul Nabi Isstaif, "Writing A History of Literature of Greater Syria", in: *Recherche Littéraire/Literary Research* (published by International Comparative Literature Association and George Mayson University), Vol. 26, Summer 2010, pp. 132-135.



حسام الخطيب

(١٩٣٢-٢٠٢٢م)



حسام الخطيب:

إسهاماته في خدمة اللغة العربية وآدابها

بين يدي المحاضرة

كيف يمكن اختزال شجرة باسقة وارفة الظلال من أشجار العلم والمعرفة، تفيأناها واغتنينا بخيرها سبعة عقود، وكيف يمكن تكثيف فسحة رحبة غنية امتدت نحواً من ثلاثة أرباع القرن من عمر عَلَم نذر نفسه للعمل العام: معلِّما في بصرى الشام، فمدرِّسا للعربية والإنكليزية في ثانويات دمشق، ورئيس تحرير لمجلة ***المعلم العربي***، ومحاضراً ثم أستاذاً للأدب المقارن والأدب الغربي في **جامعة دمشق**، وعضواً مؤسساً **لاتحاد الكتاب العرب** بدمشق، ورئيس تحرير لمجلة ***الآداب الأجنبية***، ومستشاراً في **رئاسة الجمهورية العربية السورية**، وعضواً في **المجلس الوطني الفلسطيني**، وعضواً في **اللجنة التنفيذية لمنظمة**

التحرير الفلسطينية، وأميناً عاماً مساعداً **للاتحاد البرلماني العربي**، ومستشاراً لرئيس **مجلس الشعب في الجمهورية العربية السورية**، ومؤلِّفاً لعشرات الكتب، وباحثاً مرموقاً، وكاتب زاوية أسبوعية، وأستاذاً جامعياً متميزاً، عُرف بمثابرته على محاضراته وعلى جلسات إشرافه على طلاب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية وآدابها في **جامعة دمشق**، ثم أستاذاً في كلية التربية في **جامعة صنعاء**، ثم عميداً لكلية الآداب في **جامعة تعز**، ثم أستاذاً في **جامعة قطر**، ومشاركاً فعالاً في الندوات والمؤتمرات القطرية والعربية والدولية، ألفته المنابر، واغتنت بفكره و إسهاماته محافل أهل القلم والفكر والسياسة- أقول كيف يمكن اختزال حسام الخطيب هذا الذي قدمت وأكثر، فهو كذلك الزوج المثال، والأب القدوة، والأستاذ الأسوة، والصديق المخلص الوفي في حديث ينبغي ألا يتجاوز الساعة يستضيفه منبر مجمع اللغة العربية بدمشق. فالرجل، وأي رجل كان حسام الخطيب، بحاجة إلى مؤتمر خاص يعقد لتناول مختلف جوانب إسهاماته، يتناوب على منصته مختصون في السياسة، والفكر، والفن، والأدب، والنقد، والدرس المقارن، والتربية، والترجمة، والإدارة الجامعية، لعلهم ينجحوا في إنصاف رجل كان يومه دهراً، وكانت ساعاته حقباً، خاصة وأنه ملأ كليهما حزماً وعزماً، كفل بهما عمراً ثانياً، هو ذكره الطيب العطر.

ولذلك أرجو أن تعذروا إيجازي في الحديث عن إسهامات حسام الخطيب في دراسة اللغة العربية وآدابها، لأن محاضرتي عنها لن تكون أكثر من رؤية طائر محلق لدوحة خضراء جمعت أجمل ما في الحياة الإنسانية من عمران فكري وفني وأدبي، فأدت رسالة صاحبها أمام الوطن والأمة خير أداء.

* * *

١- التحدي الأكبر

ربما كان التحدي الأكبر الذي يواجه المثقف الباحث، أو الباحث المثقف، في المجتمع العربي المتطلع نحو الانتماء بحق إلى العالم المعاصر، هو التوفيق بين مشاركته في العمل العام الذي يسعى من خلاله إلى تحقيق ذاته بوصفه عضواً في مجتمع يتفاعل معه ويمارس فيه وظيفته (أو وظائفه) التي أسندت إليه، ويُسهم على نحو ما في تغيير واقعه وبلوغ بعض تطلعاته إلى مستقبل أفضل لهذا المجتمع، وبين قدرته على الإسهام الخاص الذي يحقق من خلاله طموحاته بوصفه باحثاً يعمل ضمن تقليد بحثي في حقل معرفي معين اختاره، ويودّ أن يخلِّف وخلال عمره المحدود نسبياً إرثاً يُذكَر له، ويُذكِّر به، ويُنسب إليه، ويحمل اسمه في مجتمع يخضع لتحولات كبرى على جميع المستويات. وكثيراً ما خَسِر العلم والمعرفة في المجتمع العربي الحديث

باحثين مؤهلين تأهيلاً عالياً، وواعدين جداً، وقادرين على إضافة ما، أو إسهام ما، أو فتح ما، في حقل تخصصهم، وكثيراً ما ضحى هذا المجتمع بهؤلاء الباحثين من أجل تجنيدهم للعمل العام السياسي أو الاجتماعي أو التربوي أو الإداري، بعدما أنفق الوقت والجهد والمال في سبيل إعدادهم لما خُلِقوا من أجله من البحث والدراسة والتحصيل والارتقاء في معارج العلم والمعرفة، وكان حاله في هذا حال غارس النخل الذي يُؤخَذ -وقد رأى نموّ نخله وجماله- بظلِّه ومظهره وتناسقه، فيقتلعه ويضعه صوى أو زينة في الشوارع العامة، أي يوظفه لغير ما أعِدَّ له أصلاً، ولربما رأى فيما بعد في الثمر الجنيّ الذي يحمله عبئاً ينبغي التخلص منه. إذ إنه ربما يُسبِّب مشكلات يومية يمكن أن يستغني عنها، كالعناية به أو جمعه أو توزيعه، أو غير ذلك مما لا يتلاءم مع الوظيفة التي اختلقها له. ولذا يتداول الناس مطلباً يردّدونه في مختلف المجالس في مجتمعات دول الجنوب هو "وضع الرجل المناسب في المكان المناسب"، يرون فيه سبيلاً للإصلاح واللحاق بركب الدول المتقدمة التي يُعزى إليها التمسك بهذا المبدأ نهجاً في تنظيم شؤونها وتعبئة مواردها والنهوض بمختلف جوانب حياتها.

والناظر في سيرة حسام الخطيب العلمية والمهنية، بوصفه باحثاً مثقفاً، أو مثقفاً باحثاً، جمع بين البحث والدراسة والنقد والتأليف من جانب، وبين

العمل العام مدرِّساً ومحرراً وأستاذاً جامعياً وإدارياً علمياً وبرلمانياً نشطاً على المستوى القطري والعربي والدولي من جانب آخر، لا يسعه إلا أن يغبطه، غبطة ما بعدها غبطة، على تمكُّنه من التوفيق، وبدرجة ملحوظة، بين النجاح في العمل العام وأداءِ الوظيفة الاجتماعية -أو الوظائف الاجتماعية- المنوطة به على وجه مرضٍ من جهة، وبين النجاح في العمل الخاص - العمل البحثي الذي يسعى من خلاله إلى دفع المعرفة الخاصة به خطواتٍ نحو الأمام من جهة أخرى. بل وأكثر من هذا فإن إسهامه في ميادين البحوث التي عمل فيها وخلال ما يتجاوز ستة عقود، والذي يُعَدُّ بحق صوى بارزة لا يمكن تجاهلها من جانب أي متخصص في هذه الميادين، مرتبطٌ وعلى نحو عضوي بعمله العام الذي تبادل معه "التحفيز" "motivation" بصورة جعل كل منهما مديناً للآخر بطريقة أو بأخرى.

وثمة، فوق كل ما تقدم، خيط خفي يتخلل كل إسهاماته البحثية هو تساميه المستمر في مسعاه نحو الأفضل في كل فرصة تتيسّر له – هذا التسامي الذي يتجلى في مراجعته لعمله وتطويره وإغنائه حتى يستقيم له في صورة أفضل من سابقتها، وكأن شعاره الذي يحكم عمله البحثي "لا ترضَ بالحسن، فتش عن الأحسن". ولا شك أن تكوينه الثقافي الذي جمع فيه بين الثقافتين العربية والغربية، ينهل منهما ويعلّ على نحو مستمر، قد ساعد على توسيع آفاق

نظرته إلى الأمور التي يتفحصها، وعلى وضعها باستمرار في إطار أوسع يكفل رؤيتها على نحو أكثر موضوعية مثلما يضمن الارتقاء بمعايير تقويمه لها، نتيجة الأخذ بمبدأ "حس النسبة" "sense of proportion" الذي غالباً ما نفتقده في الثقافة العربية الحديثة، ولا سيما في تلك الميادين والوجوه المتصلة بالريادة واستشراف الآفاق الجديدة.

* * *

٢- ارتياد الآفاق

وليس ما تقدّم ضرباً من الحديث النظري الذي يطمح إلى تأطير إسهام الخطيب في الثقافة العربية الحديثة وتحديد النظام المهيمن عليه والناظم لمختلف جوانبه. ففي كل أفق ارتاده هذا الرجل شاهد بيّن على القدرة على الجمع بين العمل الخاص والعمل العام، وتبادل التحفيز فيما بينهما، والتسامي الدائم نحو الأفضل في سعي لبلوغ الكمال. ولعل إشارات موجزة إلى بعض هذه الآفاق تفي بالحاجة في هذا المقام.

* * *

٢- أ - القصة السورية حبّ الخطيب الأوّل

وإذا ما بدأ المرء بحبّ حسام الخطيب الأول وهو النثر القصصي العربي في سورية، فإنه يمكن أن يشير إلى التحقيق الأدبي[١] الذي أجراه في مجلة ***المعلم العربي*** (التي تصدرها وزارة التربية في دمشق) عام ١٩٦٦ (وكان رئيس تحريرها بين عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٦) ونُشر في عددين متتاليين من تلك المجلة، عن كتّاب القصة السورية، ثم إلى انصرافه نحواً من ثلاث سنوات لدراسة هذه القصة بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٦٧ في رسالته لدرجة الدكتوراه التي منحتها له جامعة كامبريدج عام ١٩٦٩، ثم إلى نشره عدداً من المقالات والدراسات المهمة عن "المؤثرات الأجنبية في القصة السورية" في مجلة ***المعرفة*** (التي تصدرها وزارة الثقافة في دمشق)، وسواها في مطلع السبعينات، ثم إلى كتابه "أبحاث نقدية ومقارنة"[٢] الذي صدر عام ١٩٧٣، وضمّنه بحثاً مطولاً عن "المؤثرات الأجنبية في القصة السورية"[٣] قدّم فيه تمهيداً حول نشأة القصة العربية، انتقل منها إلى دراسة نشأة القصة السورية ومراحل تطوّرها وعلاقة هذا التطور بالتطورات الثقافية القطرية والعربية والعالمية وختمه بدراستين

---

[١] ***المعلم العربي*** (دمشق)، السنة ١٩، العدد ١، كانون الثاني-شباط-آذار، ١٩٦٦.

[٢] انظر: د. حسام الخطيب، ***أبحاث نقدية ومقارنة*** (دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣).

[٣] انظر: ***المرجع نفسه***، ص ص ١٣٩–٢١٢.

تطبيقيتين موسعتين لروايتي "***في المنفى***" لجورج سالم و"***العصاة***" لصدقي إسماعيل من وجهة نظر مقارنة، تلمّس فيهما أشكال المؤثرات الأجنبية في هذين الأثرين ودورها في تشكيلهما على النحو الذي خرجا به على القارئ العربي. وما لبث أن صدر هذا البحث في العام نفسه مُوَسّعاً في كتاب مستقل عن **معهد البحوث والدراسات العالية** في القاهرة حمل عنوان "***سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية***"[1]، وضمّ محاضرات الخطيب على طلبة المعهد. ثم تتالت طبعات الكتاب في أعوام ١٩٧٤، و١٩٨٠، و١٩٨١، و١٩٩١، كان مؤلفه في أثنائها يتعهده بيد التوثيق والتنقيح والصقل والاستدراك والتوسيع والتطوير إلى أن غدا صوّة مهمة جداً في تاريخ التأليف البحثي المقارن في الوطن العربي ولا سيما في سورية حيث مارس "تأثيراً محدَّداً في الكثير من الدراسات التي تناولت القصة السورية" خلال ربع القرن الذي مضى على

[1] من أجل الاطلاع على تقويم لأهمية هذا الكتاب انظر:

عبد النبي اصطيف، "المؤثرات الأجنبية في القصة السورية مخفورة"، ***الموقف الأدبي*** (دمشق)، العدد ٨٩، أيلول ١٩٧٨، ص ص (١٤٠–١٤٩)؛ "***سبل المؤثرات*** من منظور مقارني"، في: د. حسام الخطيب، ***سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية: دراسة تطبيقية في الأدب المقارن***، ط ٥، (مطابع الإدارة السياسية، دمشق، ١٩٩١)، ص ص (٥–٦).

ظهوره الأول، وترك بصماته واضحة على العديد منها، إذ قُبل معظم ما انتهى إليه من نتائج ارتقى بها التدليل والتوثيق إلى درجة المسلمات، واعتمد تحقيبه للقصة السورية بأجناسها الفرعية المختلفة استناداً إلى مسوغاته التي ظفرت بالتقدير والاستحسان[١].

واستناداً إلى تحقيق الخطيب الأدبي عن كتاب القصة السورية المذكور آنفاً، وإلى رسالته الجامعية التي أعدّها لاحقاً، بدأ ظهور مقالاته الموسعة النقدية والمقارنة، وعلى النحو نفسه، عن الرواية العربية في سورية، ثم كان كتابه "***الرواية السورية في مرحلة النهوض ١٩٥٩ – ١٩٦٧***" الذي صدر عام ١٩٧٥ عن **معهد البحوث والدراسات العالية** في القاهرة، وضم محاضراته على طلبته، ثم كان كتابه "***روايات تحت المجهر***" الذي ظهر عام ١٩٨٣ عن **اتحاد الكتاب العرب** بدمشق، والذي كان في الواقع طبعة موسعة جداً ومنقحة، للكتاب السابق الذي تحوّل بمرور الزمن إلى صوّة أخرى مهمة في تاريخ التأليف المعني بالنثر القصصي العربي الحديث .

---

[١] انظر: عبد النبي اصطيف، " ***سبل المؤثرات*** من منظور مقارني"، ***المرجع نفسه***، ص (٤١).

ويتكرر الأمر نفسه في مجال القصة القصيرة في سورية حيث تتتالى مقالات الخطيب اللافتة للنظر في الظهور ومنذ مطلع السبعينات في الدوريات السورية والعربية والدولية عنها[١]،مشاركات عامةً في الاهتمام بهذا الجنس الأدبي تبدأ في الغالب محاضرات جامعية أو عامة، أو إسهامات في ندوات أو مؤتمرات داخل الوطن العربي وخارجه، وتنتهي في أول عهدها بالنشر مقالات يترقبها القارئ في المجلات السورية أو العربية أو الدولية، ثم يأتي دور الكتاب فيخرج الخطيب على القارئ العربي بكتابه "***القصة القصيرة في سورية: تضاريس وانعطافات***"[٢] عام ١٩٨٢ يضم فيه معظم إسهاماته البحثية والنقدية والمقارنة في العمل العام المتصل بالتأريخ لهذا الجنس الأدبي في سورية ولا سيما في "**اتحاد الكتاب العرب**" والمؤسسات الجامعية والبحثية، والذي كان للخطيب نفسه دور بارز فيه، إلى أن نجده في نهاية المطاف ينشر كتابه الممتاز ***القصة القصيرة في سورية: ريادات ونصوص مفصلية***[٣] عام ١٩٩٨- الذي يوسّع فيه ويطوّر تجربته مع هذا الفن المراوغ مما يضاعف من حجم

---

[١] من مثل " ***مجلة الأدب العربي*** "***Journal of Arabic Literature*** التي تصدر في هولندة، ليدن Leiden عن دار النشر بريل Brill.

[٢] **وزارة الثقافة والإرشاد القومي**، دمشق، ١٩٨٢.

[٣] منشورات دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٨.

الكتاب ويثري حصيلته ويعمقها استمراراً في متابعة التحولات الأساسية التي اكتنفت نشأة هذا الجنس الأدبي الحديث في سورية وتطوره، وإمعاناً في تجربة الالتصاق بالنصوص، وهو أمر مهم جداً في ضوء حيرة النقاد العرب المحدثين في مواجهتهم لنصوص القصة القصيرة العربية الحديثة وانصرافهم عنها، إلا من رحم ربك وهم قليل يمكن أن يذكر منهم محمد شاهين وصبري حافظ وآخرون.

والحقيقة أن هذا المسح السريع لمسار اهتمام الخطيب بحبه الأول الذي لا يكاد يتحوّل عنه حتى يعود إليه يوضح بجلاء كيف أن انشغاله بالعمل العام تحريراً، وتدريساً، وإسهاماً في الكتابة والمحاضرة والمشاركة في الندوات والمؤتمرات، وغيرها، كان فسحة مهمة جداً أفاد منها في تحقيق ذاته البحثية، وفي تطوير نتاجها، والتسامي إلى معارج الكمال، والارتقاء على نحو مستمر يعكس نزعته إلى الأفضل في كل ما ينتجه كلما تيسّر له ذلك، فكان العمل العام بهذا المعنى خير حافز على الإسهام المعرفي الخاص بالخطيب الباحث الذي باتت كتبه عن النثر القصصي في سورية معالم بارزة يصعب تجاهلها على أي باحث يودّ دراسته، بل يمكن القول ودون مبالغة إنها تحوّلت إلى ممّرات إجبارية لكل من يودّ المضي في دراسة القصة السورية في هذا القرن وهو أمر يتمناه أي باحث لإسهامه، ولا يتحقق إلا للقليل .

٢- ب - الأدب المقارن حبّه الثاني

وحبّ الخطيب الثاني الذي تداخل إلى حد كبير مع حبّه الأول هو حبّه للأدب المقارن نظراً، وتطبيقاً، وتأريخاً، وهو حبّ منشؤه تكوينه الثقافي الذي جمع فيه بين الثقافتين العربية والغربية مستعيناً على ذلك بمعرفته للإنكليزية التي درسها ودرّسها لغة وأدباً، وللفرنسية التي كانت لغته الثالثة، فضلاً عن أسفاره العديدة التي شملت معظم بقاع الأرض وامتدت نحواً من أربعة عقود خبر فيها غنى التنوع الإنساني، سياسة وفكراً وثقافة وفناً وأدباً وطريقة حياة.

ومثلما كان العمل العام حافزاً قوياً على انشغاله بالنثر القصصي العربي السوري والتأليف فيه، وتطوير نتاجه عنه، كان عمل الخطيب العام في سبيل قضية الأدب المقارن حافزاً مهماً جداً للكثير من أعماله فيه والتي تحوّلت بدورها إلى كتب لا يستغني عنها شداة هذا الحقل المعرفي المهم، أو المهتمون بتاريخه في الوطن العربي. والحقيقة أن عمله العام في هذا الميدان الذي غدا عنده "قضية عمر رفيعة وليس مجرّد تخصص أكاديمي ومهنة دنيوية يوميّة"[١] بدأ في وقت مبكر عندما كان يرسل رسائله الثقافية للنشر في ***المعرفة***

---

[١] انظر: د. حسام الخطيب، ***آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً*** (دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢)، ص (٥).

وسواها، في أثناء إعداد رسالته للدكتوراه حول المؤثرات الأجنبية في النثر القصصي في سورية في **جامعة كامبريدج**، وتنامى بعد عودته إلى **جامعة دمشق** عندما سعى ونجح في إدخال مقرّر الأدب المقارن في برنامج الإجازة في اللغة العربية وآدابها وللمرة الأولى عام ١٩٧٢ – ١٩٧٣، ودرّسه فيها لسنوات طويلة وضع في أثنائها كتابه ***الأدب المقارن*** في جزئين خصص الأول منهما للنظرية والمنهج، وانصرف في الثاني منهما إلى الدراسات التطبيقية الرصينة- هذا الكتاب الذي تتلمذ عليه خريجو أقسام اللغات نحواً من عقدين من السنين ولا يزال يدرس في قسم اللغة العربية في جامعة دمشق حتى يومنا هذا.

وقد توسع عمله العام هذا، والمتمثل بالتدريس والتأليف الجامعي، ليشمل جامعات عربية عدة من مثل **الجامعة اللبنانية، وجامعة صنعاء، وجامعة تعز، وجامعة قطر**، التي درّس المقرر في أقسام اللغات العربية فيها، أو أدخله في مناهجها للمرة الأولى. ولا ينسى المرء في هذا المقام إسهامه في تأسيس **الرابطة العربية للأدب المقارن** في الجزائر عام ١٩٨٤ وانتخابه أميناً عاماً مساعداً لها، ورئاسته للجنة التنظيمية التي هيأت لمؤتمرها الثاني الذي عقد في جامعة دمشق عام ١٩٨٦، وانتخابه رئيساً لذاك المؤتمر، ومشاركاته في معظم مؤتمرات الأدب المقارن التي استضافتها الجامعات العربية المختلفة في العقدين الأخيرين.

وقد كان عمله العام هذا وراءَ مسعاه البحثي للإسهام في نشر الاهتمام بالدراسة المقارنة في الوطن العربي، فكانت مقالاته التي تعرف بآخر تطورات هذا المجال المعرفي في العالم والتي كان الخطيب يتابعها عن كثب من خلال عضويته في **الرابطة الدولية للأدب المقارن** ومشاركاته في مؤتمراتها العديدة، والتي يسّرت له صلات وثيقة مع عدد من كبار المقارنين في العالم من أمثال رينيه ويليك، وهنري رماك، وفايسشتاين، وإيريكسون، وفايدا، وميرتشا ناديا أنجليسكو وغيرهم. وحسب المرء أن يشير في هذا المقام إلى سلسلة مقالاته التي ظهرت في ***المعرفة*** السورية عام ١٩٧٩ والتي قدّم من خلالها المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن تحت عنوان "الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الإنساني"، وفتح بذلك أفقاً آخر مهماً من آفاق الدراسة المقارنة أمام الباحثين العرب بعد أن هيمنت المدرسة الفرنسية لعقود طويلة على توجهاتهم النظرية والتطبيقية في الدراسات المقارنة، وكان قد مهّد لذلك بمقالاته المبكرة عن هذه المدرسة في ***المعرفة***، وبمراجعته عام ١٩٧٣ لترجمة كتاب ***نظرية الأدب*** لرينيه ويليك وأوستن وارين، والذي ضمّ تعريفاً موجزاً بهذه المدرسة في الفصل المعروف المعنون بـ "الأدب العام، والمقارن، والقومي"، مثلما عزّزه بدراساته التطبيقية الممتازة التي التفت فيها إلى المكوِّن الخارجي في الأدب العربي الحديث ولا سيما النثر القصصي فيه كالرواية

والقصة القصيرة والسيرة الذاتية كما هو الشأن في دراسته[1] لكتاب ***الأيام*** لطه حسين التي تعدّ بحق من أجمل وأعمق ما كتب عن هذه الرائعة من روائع الأدب العربي الحديث .

والواقع أن الخطيب لم ينقطع عن متابعاته لتطورات الأدب المقارن في العالم وتيسيرها للقارئ العربي وإدخالها في دائرة وعيه انتماءً معرفياً للعصر يكتفي فيه العرب المعاصرون في الغالب باستهلاك آخر التقليعات والصرعات دون الاهتمام بالتقدم المعرفي الذي يحققه الغرب. وهكذا نجده في السنوات الأخيرة ينشر في مجلة ***علامات في النقد الأدبي***، التي يصدرها نادي جدة الأدبي، مراجعات نقدية [2] آخر ما نشر من مباحث نظرية في الأدب المقارن في العالم، ويقدم مسوحاً تكاد تكون شاملة لآخر تطورات هذا الحقل

---

[1] انظر: د. حسام الخطيب، "أيام طه حسين وفن السيرة الذاتية"، ***المعرفة*** (دمشق)، العدد ١٥٣، تشرين الثاني، ١٩٧٤، ص ص (٦١–٨٠).

[2] انظر: د. حسام الخطيب، "الدراسات الترجمية: هل يمكن أن تكون بديلة للأدب المقارن؟" ***علامات في النقد الأدبي*** (جدة)، الجزء السابع والعشرون، المجلد السابع، ذو القعدة ١٤١٨هـ، مارس ١٩٩٨، ص ص (٧- ٢٦).

المعرفي[1]، ولا سيما في العالم الأنكلو أمريكي الذي قدّم إسهامات معتبرة في توسيع آفاقه واستكشاف مجالاته الغنية والشائقة.

والغاية من مسعى الخطيب هذا في التعريف بتجارب الأمم الأخرى في الأدب المقارن كانت الارتقاء بالتفكير النظري العربي والممارسات التطبيقية العربية في هذا الميدان، حتى يستقيم مساره في الثقافة العربية. ولعل هذه الغاية هي التي دفعت الخطيب إلى الاهتمام بتاريخ الأدب المقارن في الوطن العربي والقيام بأبحاث أصيلة مُحَدِّدة لمجالات الريادة فيه نظراً وتطبيقاً. من هنا كان انصرافه بداية إلى الكشف عن ريادة روحي الخالدي في الدراسات التطبيقية في تاريخ الأدب العربي المقارن، من خلال أبحاثه التي قدّمها في المؤتمرات الدولية والعربية ومقالاته ودراساته التي نشرها في عدد من الدوريات العربية والدولية، ومحاضراته وأحاديثه ومقابلاته، والتي تتوجت بكتابه "***روحي الخالدي: رائد الأدب العربي المقارن***" الذي صدر عام ١٩٨٥، والذي استبقه

---

[1] د. حسام الخطيب، "تضاريس النشاط النشري في الأدب المقارن عند انثناءة القرن"، ***علامات في النقد الأدبي*** (جدة)، الجزء الخامس والعشرون، المجلد السابع، جمادى الأولى ١٤١٨هـ، سبتمبر ١٩٩٧، ص ص (٣١- ٧٢).

بالعناية بإعادة نشر كتابه الرائد ***"تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو"*** محرَّراً، والتقديم له في طبعته الرابعة التي صدرت في دمشق عام ١٩٨٤.

ويمكن للمرء كذلك أن يدرج في هذا المنحى اهتمامه بالكشف عن ريادة خليل الهنداوي في إدخال مصطلح "الأدب المقارن" إلى الثقافة العربية الحديثة عام ١٩٣٦، وتكبّده عناء مراجعة عدد كبير من الدوريات العربية المختلفة في أثناء سنة البحث العلمي التي أمضاها في العام الدراسي ١٩٨٧ – ١٩٨٨ في **جامعة إنديانا** بحثاً عن "العنوان الأول والنص الأول" في نظرية الأدب المقارن في الثقافة العربية الحديثة. وكذا الشأن في جهوده اللاحقة التي ظهرت بالعربية والإنكليزية والتي كان آخرها كتاب ***"آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً"*** الذي يعد بحق أفضل مدخل للمدرسة الأمريكية في الأدب المقارن تيسّر للقارئ العربي حتى يومنا هذا، وأكثر التواريخ العربية تسامياً للكمال للأدب العربي المقارن في القرن العشرين، فضلاً عن محاولة صياغة وجهة نظر عربية في الأدب المقارن تنطوي على سعي جاد ومخلص لخدمة قضية الأدب المقارن في الوطن العربي[1]، قضية عُمْر الخطيب الذي كان أبداً محمّلاً بالثمر الطيّب الجنيّ الذي تتوق إليه الأجيال العربية دوماً .

---

[1] من أجل الاطلاع على تقويم لأهمية هذا الكتاب انظر:

٢- ج - الخطيب وثقافة الآخر

والواقع أن أهم ما يميز ثمر الخطيب أنه ثمر مُوَلّد اغتنى بمورثات منّوعة شرقية وغربية عربية وأوربية، وربما كان من أهم ما يُحمد للخطيب سعيه إلى إشراك القارئ العربي بهذا المكوّن الخارجي الذي أسهم في تكوينه الثقافي منذ وقت مبكّر يعود إلى سنوات الدراسة للإجازة في اللغة الإنكليزية وآدابها بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٩. ويتمثل هذا المسعى من عمله العام في **رسائله الثقافية** التي كان يرسلها للنشر من بريطانيا، وفي **تغطيته للمؤتمرات** التي كان يحضرها وتحليلاته لها والتي ما فتئ ينشرها في مختلف الدوريات العربية، وفي محاضراته الجامعية في الأدب الأوربي ونقده، وفي ترجماته، أو مراجعاته لترجمات غيره، وفي كتابه المتسامي نحو الكمال بالزيادة، والتوسيع، والتعديل، والتنقيح، الذي ظهر أول ما ظهر عام ١٩٧٢ بعنوان "***الأدب الأوربي: تطوره ونشأه مذاهبه***"[١]، ثم تولته يد الخطيب بالتطوير والتوسيع والتنقيح والزيادة، فظهر عام ١٩٧٥ تحت عنوان "***محاضرات في تطور الأدب المقارن***

Abdul Nabi Isstaif, "Comparative Literature in the Arab World: An Overview" ***The Comparatist,*** Vol. XIX, May 1995, pp. 134–140.

[١] مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٧٢.

ونشأة مذاهبه واتجاهاته النقدية"[1] منشوراً من جانب جامعة دمشق، وتتابعت عليه جهود الخطيب عارجة به إلى سماء جديدة من الإتقان ليخرج لطلاب قسم اللغة العربية وآدابها تحت عنوان "***جوانب من الأدب والنقد في الغرب***" عام ١٩٨٣، يستعينون به على استيعاب المكوّن الخارجي الغربي وعلى فهم دوره في تكوين الأدب العربي الحديث ونقده.

والحقيقة أن تواصل الخطيب مع الثقافة الغربية خاصة والعالمية عامة كان تواصلاً مستمراً يسرته له دراسته في بريطانية أولاً، وأسفاره الكثيرة إلى مختلف العواصم محاضراً أو مشاركاً في الاجتماعات والندوات والمؤتمرات ثانياً، ومشاركته في تحرير ***الآداب الأجنبية*** ورئاسته لتحريرها فيما بعد بين عامي ١٩٨٢ و ١٩٩٠ ثالثاً، وإقامته البحثية في الجامعات الأمريكية (**جامعة انديانا** ١٩٨٧ – ١٩٨٨، **وبورتلاند** صيف ١٩٩٥) رابعاً، فضلاً عن ترجماته ومراجعاته لترجمات غيره ومشاركته الأخيرة في ترجمة ***موسوعة الأدب العالمي***

---

[1] من أجل الاطلاع على تقويم لأهمية هذا الكتاب انظر:

عبد النبي اصطيف، "تطوّر الأدب الأوروبي من خلال محاولة عربية جادة"، ***الموقف الأدبي*** (دمشق)، العدد ٦٨، كانون الأول، ١٩٧٦، ص ص (١٢٢–١٣٢).

إلى العربية والتي تعهدتها مؤسسة عربية سعودية في الرياض وأخرجتها موسوعة شاملة ظهرت في أكثر من طبعة .

٢- د - الخطيب والعناية بالثقافة العربية الفلسطينية

ومما تجدر الإشارة إليه أن توجّه الخطيب في كل ما قام به من عمل عام أو عمل خاص كان توجهاً قومياً عربياً. ولذا فإنه لم ينقطع في يوم عن النظر إلى الظاهرة الأدبية القطرية المدروسة في إطار الظاهرة الأدبية العربية القومية حتى في دراسته للنثر القصصي في سورية، والتي سلخ فيها أكثر من أربعة عقود من عمره. وأكثر من هذا فإنه، وحتى في سعيه إلى إبراز الهوية الفلسطينية المهدّدة على مختلف المستويات من قبل العدو الصهيوني الشرس، حافظ على هذه العلاقة العضوية الحميمة بين الإسهام الأدبي العربي الفلسطيني والأدب العربي الحديث. ذلك أنه وفضلاً على كون قضية فلسطين قضية العرب المركزية، ثمة مسوّغات داخلية من طبيعة المادة الأدبية المدروسة نفسها تؤكد الوحدة التي لا تنفصم لجسم الأدب العربي الحديث.

يكتب الخطيب في معرض تقديمه لكتابه الموسوم بـ "***النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشتات***" الذي صدر في عام ١٩٩٦ في سلسلة **أوراق**

فلسطين الثقافية التي تنصرف إلى تناول جوانب مختلفة من النشاط الثقافي للشعب العربي الفلسطيني بشقيه المقيم والمشرّد، "وترصد جوانب من إسهامه الأدبي بوجه خاص في نطاق مسيرة الأدب العربي الحديث ذات الوجوه المتعددة"[1]:

"وسوف يلاحظ القارئ بسهولة أن هذا التأكيد على الارتباط العضوي لحركة الثقافة والإبداع الفلسطينية بالمناخ العام للأدب العربي الحديث سيظل الهادي الأول لسلسلة **أوراق فلسطين الثقافية**، وأن المنهج الذي تلتزمه الدراسة هو **منهج عربي شامل وليس منهجاً إقليمياً محدداً بالأبعاد المحلية**. وهذا الالتزام العربي الواسع ليس وليد اليوم أو الأمس، وإنما هو قناعة ولدت مع أبحاث المؤلف الأولى التي حملت عنوانات ذات طابع قطري مثل كتابيه المبكرين اللذين ظهرا أوائل السبعينات وتناولا جوانب من حياة القصة في سورية، وهما:

- سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية.

---

[1] انظر: د. حسام الخطيب، ***النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشتات*** (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦)، ص (٧).

- الرواية السورية في مرحلة النهوض.

وقد تتابعت بعد ذلك دراسات للمؤلف تناولت النشاط القصصي والنقدي في سورية وفي فلسطين كذلك، وكانت كل تجربة بحثية يخوضها المؤلف تؤكد له بما لا يقبل الشك أنه من غير الممكن تطبيق منهج إقليمي ضيق في دراسات الأدب العربي، ضمن حدود المشرق العربي على الأقل.

وهكذا اكتسبت القناعة النظرية (وربما الأيديولوجية) مناعة تطبيقية وانعكست في المنهج والممارسة وطبيعة الاستنتاجات"[١].

وهكذا نجده يعلن براءته من المنهجية الإقليمية الضيقة في دراسة ظواهر الأدب العربي الحديث في مختلف أقطار الوطن العربي:

"لا بسبب الالتزام النظري والقومي فقط ولكن أيضاً بسبب مستلزمات طبيعة المادة الأدبية المدروسة التي لا يمكن فصلها عن حركة الإطار الثقافي العربي الذي من محيطه تتغذى ومن أجوائه تتنفس وفي فضائه تنشر شذاها وتنتعش وتتفاعل وتثمر"[٢].

---

[١] انظر: **المرجع *نفسه***، ص ص (٧- ٨).

[٢] انظر: **المرجع *نفسه***، ص (٩).

وكما كان الشأن في دراساته الصوى للقصة العربية في سورية بأجناسها الأدبية الفرعية المختلفة والتي حفزها عمل الخطيب العام تدريساً وتحريراً وتأليفاً جامعياً وإدارة علمية ومشاركات ثقافية عامة، فإن دراساته عن جوانب الحياة الثقافية في الوطن الفلسطيني والشتات أو المنفى جاءت محفوزة بعمله العام بوصفه مثقفاً عربياً فلسطينياً انخرط في النضال السياسي والثقافي من أجل قضية العرب المركزي. وهكذا ضم كتابه "***ظلال فلسطينية في التجربة الأدبية***"[(١)] (١٩٩٠) مجموعة مهمة من إسهاماته في دراسة الموضوع الفلسطيني في الأدب العربي الحديث، هذه الإسهامات التي تمثل انشغاله الدائم بفلسطين مثله في ذلك مثل أي مثقف عربي منتم إلى أمته وشعبه. وجاء كتاباه "***حركة الترجمة الفلسطينية***" (١٩٩٥)، و"***النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشتات***" (١٩٩٦) واللذان نشرا في سلسلة تسعى إلى الحفاظ على ملامح الهوية الثقافية للوطن الفلسطيني المستلب، حصيلة مطوّرة وموسّعة ومتقدمة لإسهامه في عمل عام يصب في الصراع العربي الصهيوني على الوجود في فلسطين وهو ***الموسوعة الفلسطينية*** التي شارك فيها ببحثين موسعين هما البحث السابع الموسوم بـ "حركة الترجمة الفلسطينية في القرن

[(١)] انظر: د. حسام الخطيب، ***ظلال فلسطينية في التجربة الأدبية***، (دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، دمشق، ١٩٩٠).

العشرين حتى عام ١٩٨٥"، والبحث الثامن الموسوم بـ "النقد الأدبي الفلسطيني الحديث ١٩٠٠- ١٩٨٥"، اللذان ظهرا في المجلد الرابع منها.

وهكذا كان عمل الخطيب العام المتصل بالقضية الفلسطينية بوصفه عربياً فلسطينياً اقتلع من أرضه، وعضواً في ***المجلس الوطني الفلسطيني*** يمثل شعبه في الشتات، ومثقفاً منتمياً ملتزماً بقضية شعبه وأمته يُسخِّر قلمه من أجل خدمة قضاياهما، خير حافز على إسهامه المعرفي البحثي الخاصّ به بوصفه باحثاً أكاديمياً يرغب في تطوير المعرفة الخاصة بالحقل المعرفي الذي اختاره والموضوع المحدَّد الذي أراد أن يحقق ذاته البحثية من خلاله. ولا أعتقد أن باحثاً معنياً بقضيتي الترجمة والنقد الأدبي لدى فلسطينيي الوطن والشتات يستطيع أن يستغني عن جهود الخطيب المتقدم ذكرها والتي تحوّلت بعزمه وحزمه ودأبه وخبرته إلى مَعلَم بارز في الدراسات المتصلة بالجانب الثقافي من الهوية الفلسطينية المهددة بوجودها.

* * *

٣- الخطيب ونزعة التسامي في العمل الخاص

والحقيقة أن الخطيب في جلّ ما قام به من عمل عام ارتبط بوطنه المستلَب -فلسطين-، أو وطنه الأوسع -بلاد الشام- ، أو وطنه العربي الكبير، كان يسعى

إلى تقديم إسهامه النوعي الخاص به، والذي يحمل بصماته، ووجهة نظره، وموقفه الفكري، ونظرته النقدية، والتزامه الذي لا يتزعزع بالبحث عن هامش الأفضل في وجوه الحياة العربية الحديثة. وهكذا كانت كتبه في الأدب والنقد الأدبي والأدب المقارن واللغة والثقافة والتي حفزتها نشاطاته العامة خير تجسيد لمسعاه الشخصي في تحقيق ذاته، وأفصح بيان عن تطلعه إلى ذكر الفتى الذي تحدث عنه المتنبي في يوم.

ومما يلاحظه المرء المتتبع لمسعى الخطيب على امتداد العقود الأربعة ونيف هذا القلق الإيجابي المنتِج الذي يكمن وراء تساميه بإنتاجه، ومحاولته المستمرة بالتالي لتطوير أدائه. فهو باحث محكِّك يعيد النظر فيما يكتب وينشر، ويتدبره بالتنقيح والتعديل والتصحيح كلما تيسّرت الفرصة لذلك، ولا يثنيه عن التدبّر بريق الاسم، أو غرور السمعة أو الاطمئنان إلى قلة المحاسبة أو التقويم أو التسآل الشائعة على نحو فاجع في الحياة الثقافية العربية المعاصرة[١].

* * *

[١] انظر شكوى الخطيب من كل هذه المثبطات في مقدمة كتابه: ***آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً***، ص ص (٥–٦).

٤- الخطيب والارتياد المستمر

وثمة أمر آخر يطبع مسعاه بالدرجة نفسها من القلق هو روح الرائد الذي يوجه خطاه نحو الجديد باستمرار، وكأنه يأنف من أن يسلك مستن الدروب، أو ألا يقول إلا المعاد والمكرور. ولعل هذا ما يكمن حقاً وراء تحوّله المستمر من أفق بحثي إلى أفق آخر يستشرفه ويروده ويأتي أهله بأصدق الأنباء، والرائد لا يخون أهله، يتلمّس الهدى لنفسه ولقومه إلى ما يرى أنه الحقيقة. وهكذا نجده يستكشف أفق القصة العربية في سورية، ولا يلبث أن يتحول عنه إلى أفق الأدب الأوروبي، ثم يجمع إلى ذلك رود أفق الأدب المقارن، منتقلاً بعدها إلى اللغة العربية، فالتجربة الأدبية الفلسطينية، فالأدب والتكنولوجيا وهو أحدث الآفاق عهداً باهتمام الخطيب الذي انصرف مؤخراً إلى دراسته وأخرج للقارئ العربي كتابه الشائق والشائك في آن معاً والذي عنونه بـ "***الأدب والتكنولوجيا وجسر النص المفرّع Hypertext***"[1] (٢١) (١٩٩٦).

والخطيب في كل ما ارتاده من آفاق يبذل ما وسعه الوقت والجهد والخبرة المتنامية المصحوبة بالعزم والحزم منطلقاً نحوها برغبة صادقة في التطلع نحو الأفضل في الحياة الثقافية العربية، وكان غالباً ما يعود بحصيلة سرعان ما

---

[1] **المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر**، دمشق، ١٩٩٦.

تتحول إلى صوى تهدي شداة البحث العلمي مثلما تعين ذوي الخبرة والمعرفة على المضي في درب العلم والحقيقة. ولكن السندباد القابع في أعماقه كان يدفعه باستمرار إلى الارتحال من جديد بحثاً عن الجديد، وكأنه كان يخشى إخلاق ديباجته، فيغترب ويتجدد ويجدّد ويمضي مثل بروميثوس يكتوي بالنار ويقدّم حصيلتها نوراً يهدي كل عربي متطلع نحو غد أفضل يليق بواضعي الأبجدية، خلفاء الله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم.





فهد عكام

(١٩٣٢-١٩٩٩م)



فهد عكام

وتقفيّ القول الشعري[1]

وطول مقام المرء في الحي مخلق لـديبـاجتيـه فـاغترب تتجـدد
ألم تر أن الشـــمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

* * *

يومي من الدهر مثل الدهر ممتلئ عزماً وحزناً وساعي منه كالحقب

* * *

كلّما تسامى فهد إلى ساحة وعيي تداعت إليها معه هذه الأبيات لأبي تمام الذي شغل به فهد عكام لسنوات طويلة في باريس ودمشق وصنعاء يتدبر شعره، بالشرح والتحليل والتفسير والمقارنة والحكم مستعيناً في ذلك كله بما تيسّر له من معرفة تنتمي لتراثه وللمواريث الثقافية والأدبية والنقدية التي تتصل

[1] **الأسبوع الأدبي** (دمشق)، العدد ٦٦٨، تاريخ ١٩٩٩/٧/١٧.

بالآخر، ثم مستنداً إلى ما استنبطه من معرفة من هذا الشعر الطائي في تدبر النصوص الأدبية العربية القديمة والحديثة شعرها ونثرها.

كلما لاح طيف أبي نورس بمشيته الهادئة المطمئنة وبلفافة التبغ التي كان يراودها وتراوده عن صحته، وبصوته الخفيض الذي يتخلله سعاله، وبنظرته الشاردة التي تحاول اللحاق بالصور والأفكار والوشائج التي توحي بها قراءاته للنصوص التي استبدت بساحة وعيه، تذكرت شكري فيصل المتذوق الأمهر وتذكرت هيامه بالنصوص العربية التي كان يتكئ عليها ليخرج على قرائه وطلابه ومستمعيه بنماذج رفيعة من سياحة الروح في عالم الأدب والفن. ففهد عكام كان يمكن بحق أن يكون خير من يخلف أستاذه شكري فيصل في تذوقه للنصوص لولا أنه فتن باللسانيات الفرنسية وبما تُيَسِّر من أدوات تحليل للنصوص الأدبية تستغرق كل مستوياتها على نحو شامل يكاد يبلغ في تخلله لفن القول ما يبلغه جهاز التصوير الطبقي المحوري من تغلغل في جسم سر الأسرار، الكائن البشري، فقد رأى فيها ضالته، وتبّدت له في صورة تعويذة تشبه عبارة "افتح يا سمسم" التي يتلوها عادة انفراج تدريجي عن عالم يجاوز كل الحدود في سحره وفتنته وغوايته -هو عالم الفن الشعري الذي يتضمن فيما تراءى لفهد عكام إبلاغاً لغوياً يقدم الأفكار، وإبلاغاً مرئياً يقدم الصور، وإبلاغاً سمعياً يقدم ألواناً من الموسيقى، وإبلاغاً لا شعورياً يقدم إيحاءات تنتمي إلى

عالم الحلم والغريزة والرغبة، فكان بذلك أسمى من الفن التشكيلي وأغنى من الموسيقى فيما ينطوي عليه من دلالات.

وهكذا انشغل بالنصوص دراسة وتدريساً أن يستكشفها بل أن يشَرِّحَها بمبضع اللساني الذي أُخِذَ بسحر علوم اللغة الحديثة وقدرتها على تناول أدق دقائق النصوص التي صنعها عقل الفنان القادر عقل الصانع الأمهر: " il moglior fabbro" إذا ما استعرنا وصف إليوت لشيخه إزرا باوند.

وَوِهَم فهد أن السبيل إلى إصلاح ما أفسده الدهر الغشوم في دراسة نصوص الأدب العربي قديمها ووسيطها وحديثها هو هذا النقد الشارح الذي يتخذ من التأويل التكاملي للنص مذهباً في تدبر النصوص، ووهم أنه قادر على أن ينشره بين طلبته في دمشق (في قسم اللغة العربية وآدابها وفي قسم النقد والأدب المسرحي في المعهد العالي للفنون المسرحية) وحمص (في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة البعث) وصنعاء، وفاته أن كبار النفوس وحدها قادرة على اجتراح معجزة كهذه، وأن قلة ممن يزعمون حبّ الفن الشعري كانوا مستعدين لإرهاق أجسادهم في تحقيق مرادها، وأن طلاب المعرفة المحدثين ممن تيسّرت لهم نعمة المعرفة بأقل الجهود كانوا يبحثون عن معادلات سحرية سريعة المفعول تقوم بمهمة تدبّر النصوص وما كان حب الفن ليبري أجسادهم في يوم، كما برى حبه جسد فهد عكام.

وهكذا وجدناه ينصرف إلى نشر معلقاته النقدية في مختلف الدوريات الرصينة داخل القطر العربي السوري وخارجه، يريدها نماذج تستلهم في تطبيق مذهبه في التأويل التكاملي للنص، ولعلها تكون كذلك عندما نظفر بجيل له همة فهد، ونفس فهد، وروح فهد، العارجة أبداً إلى سماوات الفن الرفيع.

لقد رأى فهد في المعرفة المتصلة بفن القول عزاءه في هذا العالم الجحود، الذي يتنكر فيه البعض حتى لأنفسهم عندما تحول بينهم وبين ما يرغبون فيه. وهكذا وهب حياته لها ينتجها كلما تيسّرت الفرصة لذلك -وما أقلها لمنتجي المعرفة في هذا القطر الذين يشغلون بكل شيء يصرفهم عنها- وينشرها بين طلابه كلما التقى بهم في محاضرة أو ندوة.

ملأ يومه وساعه عملاً متصلاً في عالم المعرفة الأدبية، ليمدد هذا اليوم وتلك الساعة، ويضمن عمره الثاني -وذكر الفتى عمره الثاني- أنفق جسده حتى آخر رمق فيه في سبيل هذه المعرفة.

رحمك الله يا فهد، فقد كنت أبداً الخاسر دوماً إذ اتخذت من المعرفة قضية حياة، فهي كالحب تماماً ولكن كما وصفه غونر ايكيلوف عندما كتب:

صعب أن تعاني

وصعب أن تعاني دون أن تحب

ومستحيل أن تحب دون معاناة

وصعب أن تحب

ومن يتخذ من المعرفة قضية حياة، ويمنحها حبه الأكبر، ستكون حياته قرباناً يقدم على مذبحها، شمعة تذوب في سبيل الحقيقة، نوراً يتبدد ليبدد الظلام، وستكون ولادته بسيطة وموته بسيطاً كما ذكر ايكيلوف:

الولادة بسيطة

فأنت تصبح نفسك

والموت بسيط

فأنت لم تعد أنت

وربما كان الأمر على العكس من ذلك

كما هو في عالم المرآة:

الموت يمكن أن يكون قد أتى بك

والحياة أطفأتك

يستوي الأمران على هذا النحو:

من الموت انبثقت

والحياة تمحوك بالتدريج


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



محمود موعد

(١٩٤٢-١٩٩٧م)



عندما نتلفت فلا نجدهم:

محمود موعد.. حياة انتظار

وهكذا مضيت يا أبا عماد من عالَمنا - عالَم الخيبة والقلق والتخاذل، والهرولة؛ عالم المرونة هي الذل بعينه، عالم السلام الذي هو التسليم ذاته، عالم الواقعية التي لم تستخدم إلا مظلة للخور والضعف؛ عالم الانتماء إلى العصر الذي يفضي في نهاية المطاف إلى التخلي عن قيم الكرامة والعزة والإباء والشرف.

مضيت -فيما أكده فيلسوف الإيثار أبو العلاء- إلى دار الرشاد، مؤكداً بدورك بسلوكك وعلاقاتك التي أسستها على الصفاء، أن خير السحاب ما انتظم البلاد كلها، وأن أخاك قبل نفسك، وأن الآخر قبل الأنا، وأن العمل هو في جوهره مد للجسوم جسراً لعبور الرفاق.

مضيت، ولعل روحك الآن تحوم فوق صفورية حيث ولدت عام ١٩٤٢م، دون أن تودع الكثيرين من أصدقائك، وأنت الذي كنت تستقبلهم في دمشق كلما دعا الحنين إلى الوطن أو الشوق على عاصمة الشآم، وتودعهم كلما دعا داعي الطموح إلى الاغتراب والتجدد.

فضّلت أن تجعل نفسك، وأنت تنتظر موعدك مع صفورية وأهلها، ممثلاً لوطنك الأم في عاصمة الإباء والشمم، تستقبل كل من يزورها من أصدقائك، وأصدقاء أصدقائك، وتودعهم على أمل اللقاء، كنت تعرف دمشق، وتتذوق كل وجه من وجوه جمالها وروعتها، بأزقتها وحاراتها القديمة، بتقاليدها العريقة في المطعم والمشرب والملبس، بصمودها وعنادها، وكنت تتطلع إليها، قلعة يتقهقر على بواباتها كل معتدٍ باغٍ، عاصمة وطن تتناهشه أنياب الأعداء شمالاً وجنوباً، ويتحفز مستجمعاً قواه لردها، واسترداد ما استعصى على ازدراد أنيابها في هذا القرن، وكنت ترى فيها ملاذك الذي يمحي حلمك المستحيل فيما تبين لك بعد ثمانية وأربعين عاماً من الانتظار القلق المقلقل.

ومن المخيم الذي رأى فيه أبوك وأمك، ومن بعدهم رأيت أنت وأولادك وأحفادك فيه، مكان إقامة عابرة إلى أن يحين الموعد، سعيت، ونجحت في أن تبني في كل عاصمة أو مدينة تزورها بيتاً من البشر، صديقاً تزوره أو ترسل إليه من يزوره نيابة عنك، فكنت المركز في شبكة من الأصدقاء والمعارف

الذين لو فكروا مليّاً في صلاتهم المتبادلة وفيما يجمع بينهم، لوجدوا أنك أنت وحدك في القلب من هذه الصلات، والقلب من كل منهم. ولأن محبتك كانت محبة العاقلين، ولأنك كنت تحب على التصافي، فقد كنت الصديق الذي يقاوم به أصدقاؤك صدأ العيش الذي تحدث عنه أبو تمام، أو أولئك النفر من الناس الذين جعلوا بممارساتهم الحديثة في العلاقات الإنسانية المعاصرة، القرب منهم بعداً من الروح، والوحشة مثلهم هي الأنس، حتى لكأن الدنيا قد تحولت بهم إلى حبس، وهكذا كنت الحرية التي ينشدها هؤلاء الأصدقاء ويستطيعوا في ظلها أن يكونوا أنفسهم.

وكنت يا أبا عماد، وكلما سافرت، اتصلت وودعت، وسألت عن حاجات أصدقائك من البلد الذي يممت وجهك نحوه، أو من أهله، تعود بها ما تيسر لك ذلك، فتصل رحم الصداقة براً بات اليوم سلعة نادرة بعد أن غدت الصداقة طقساً من طقوس العلاقات العامة التي تيسر المصالح الدنيوية، يؤدي ببراعة تدهش وتصعق في آن، وكيف لا تدهش وتصعق هذه الصداقة - الطقس بعد أن تحولت إلى مجرد سحابة صيف سرعان ما تبددها الأيام.

وكنت كالعادة لا ترد طلباً قادراً عليه، وإن كان بعضه على حساب وقتك الذي تبدد بين أصدقائك سعياً بينهم بالخير، وسعياً بالنجاح، وتوطيداً لروابط المودة؛ وكان بعضه الآخر على حساب صحتك التي كانت تتداعى ويحفظها

إلى حين التمسك بحلم كان يدغدغك بجنون فتمضي الساعات في تأمله بصمت؛ وكان بعضه الثالث على حساب راحتك التي لم تكن تعني الكثير لصاحبها، تراك تذكر كيف كنت تطلب أحياناً أن تتمدد لدقائق على «الصوفا» في شرفة منزل أخيك أبي الأمجد قبل أن تتبادل أطراف الحديث معه في ساعة متأخرة، لم تسمح مواعيدك العديدة أن تقدمها، على الرغم من سعيك الجاهد إلى ذلك، وهل تذكر يوم عدنا من اللاذقية بعد حضور ندوة عقدت لنقاش مجموعة قصص لواحد من أدبائها، ومررنا بحصين البحر أنا وأنت وحسن حميد في ساعة متأخرة من الليل، وتبينت، وتبينت، فيما يشبه المعجزة أنك كنت تقود مغمض العينين لشدة إرهاقك، مع أنك لم تبد في أيّة لحظة في ذلك المساء أية إشارة إلى إنهاكك، الذي كنت تخفيه تحت ستار من ابتسامتك الصافية، وتعليقاتك اللطيفة، وأسئلتك الطريفة المحرجة أحياناً، وأحاديثك الشائعة أو تحت سكينة صمتك ونحن نصغي على مسجلة السيارة تعيد على مسامعنا تسجيلات قديمة أحياناً لأعلام الغناء العربي في العقود الأولى من هذا القرن، أو تسجيلات حملتها معك من اليمن السعيد خلال السنوات التي قضيتها فيه، أو في أثناء زياراتك العديدة في إهاب القاص الأديب حيناً، وفي إهاب المربي حيناً آخر عندما يتصل الأمر بعملك الوظيفي مديراً عاماً لدائرة التربية والتعليم العالي في منظمة التحرير الفلسطينية.

نعم، مضيت يا أبا عماد دون أن تودع عالمنا هذا بكل بؤسه ولا إنسانيته، ولكنك ستظل في دفء القلب، وألق العين، وسكينة النفس، ووقدة التطلع نحو الغد المرجو؛ وصفاء السريرة، وينبوع المحبة الذي لا ينضب.

وكيف لامرئ مثلي أن ينسى لقاءاتنا الأولى في مقر مجمع اللغة العربية في المدرسة العادلية، وكان همّ أبي عماد منذ عرفته أن يسأل ويطمئن عن دراسة عبد النبي وأحواله: عن دراسته في الإجازة، وعن دراسته وبحوثه في دبلوم الدراسات العليا، وعن موضوع رسالته للماجستير، وعن اختياره معيداً في جامعة دمشق، وعن إيفاده إلى كلية سانت أنتوني في جامعة أكسفورد، وعن سير دراسته هناك، وعن موضوع رسالته للدكتوراه، وعن مناقشته، وعن مشاريعه، وكأنّ تقدم الصديق ونجاحه هما تقدم ونجاح لأبي عماد نفسه.

وكيف لامرئ مثلي أن ينسى سرور أبي عماد ببعض ما أنجزه صديقه عبد النبي من بحوث على تواضعها، وسعيه لنشرها له هنا وهناك، وتشجيعه على كتابة المزيد.

وكيف له أن ينسى اتصالاته من باريس بصديقه في أكسفورد، يطمئن عليه، ويشجعه، يسأله عن حاجته من الكتب والمراجع يرسلها له، ما تباطأ الآخرون في إرسالها، أو تناسوها وتناسوا صاحبها، وكيف له أن ينسى استقباله

له هناك في عام ١٩٧٨م في باريس في محطة القطار، واصطحابه له إلى مختلف المكتبات والمعالم الباريسية، وتلقطه لأصدقائهما المشتركين في العاصمة الفرنسية: هاشم صالح، ومجيد النصر، وسوسن سليمان، وبدر الدين عرودكي، وبكري علاء الدين، وعبد الكريم حسن، وغالي شكري، وفنان الكاريكاتير البهجوري، ومحمود أمين العالم، وعبد الرزاق عيد، وغيرهم.

وكيف لي أن أنسى زيارته في أكسفورد عام ١٩٨٢م، عندما لم يكتف أبو عماد بإتقانه للفرنسية التي كان يترجم إليها مختارات من القصص الفلسطيني بالاشتراك مع المستشرقة السويسرية كلود كرول، ويكتب شعره بها، وينشره في ديوان يحمل عنوان: «برقوق من فلسطين» (١٩٨٥)، ويترجم منها قصصاً وروايات لغارثيا ماركيز وإيتالو كالفينو، فجاء إلى إنكلترا ليتعلم الإنكليزية في مطلع العقد الخامس من عمره.

وكيف له أن ينسى سعيه المعرفي دارساً جادّاً لمسألة الدين عند نجيب محفوظ، ونيله لدرجة الدكتوراه على رسالته التي قدمها إلى جامعة السوربون عام ١٩٧٨م، وسعيه الفني ومغامراته الجريئة الشائقة في كتابة القصة القصيرة (والتي نشر منها مجموعتين فقط هما رباعية الموت والجنون عام ١٩٧٨م، وفحيح المرايا عام ١٩٨٨م) والتي حقق فيها نجاحات معتبرة وبخاصة في التقاطه لتيار الوعي في شخصياته، وفي تعدد أصواتها، وتنافرها، وتناقضها،

وتضادها، وتشظيها في كل الاتجاهات، ثم في وحدتها في عالمها المعقد المركب من القلق، أو الإثارة، والتأمل، والتفكير العميق في واقع يدعوه إلى الموت أو يبعث على الجنون.

وكيف له أن ينسى زاويته حديث الصباح التي كان ينشرها في صحيفة البعث حيث ترك قراءه في حيرة لا يعرفون إن كان ما يكتبه يدخل في باب الواقع أم الخيال. في رواية الحقيقة أم في إتقان التخيل، فينهالون عليه وعلى أهله وعلى أصدقائه المقربين بالأسئلة علهم يهتدوا إلى قرار بشأن هذا العالم الإنساني الفريد الذي يقدمه لهم في زاويته المتميزة التي لم يألفوا مثلها، وكيف لهم أن يألفوا هذا العالم الموعدي وقد باعدت بينهم وبينه رتابة الحياة المعاصرة وانتماؤها لعصرها بالقشور والمظاهر والشكليات فقط.

كيف له أن ينسى في أبي عماد السندباد البري والجوي، ينتقل برّاً بين محافظات القطر ليؤدي واجبه مقرراً لجمعية القصة والرواية في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، محاضراً حيناً في شأن من شؤون القصة العربية الحديثة، أو الأدب العربي الحديث عموماً، قارئاً لإنتاجه القصصي المتميز حيناً آخر، معقّباً حيناً ثالثاً على بحث أو قصة أو رواية لزميل كاتب أصرّ على اسمه لما يعرف عنه من دماثة وحساسية وموضوعية وإخلاص، أو مترئساً حيناً رابعاً لجلسة أدبية أو نقدية يديرها بأدبه الجم وتقديره المخلص للمشاركين فيها،

ويعلق على مجرياتها بطريقته الموعدية المتميزة؛ وينتقل جوّاً بين عواصم الوطن العربي وأوروبا يسهم هنا وهناك بما فتح الله عليه من مشاركات جادة كان يقدمها بتواضع شديد وحياء أشد. لأنه ما كان ليرضى عن إنتاجه. وربما كان هو السبب الكامن يقدمها وراء قلّة إنتاجه القصصي والنقدي غير المنشور. هذا النتاج الموزع على العديد من الدوريات، أو الذي ما زال حبيس المسودات والبطاقات وهوامش الكتب التي كان يطالعها ويعقب عليها ارتجالاً مثلما هي عادة المدرسين الذين سلخوا العمر في المحاضرات اليومية في قاعات الدرس.

نعم يا أبا عماد، لقد سلخت العمر وأنت تدرِّس في المدارس الثانوية في مختلف محافظات القطر العربي السوري (تراك تذكر سعي أحد عمداء كليات الآداب إلى إغاظتك وإحراجك عندما كان يذكرك بأنه كان تلميذاً لك وأنه أكثر شباباً منك). ثم في دور المعلمين عامة، ومعاهد إعداد المدرسين، ثم في جامعة دمشق في قسمي اللغة العربية واللغة الفرنسية، ثم في المعهد العالي للفنون المسرحية في قسم النقد والأدب المسرحي، وفي اليمن الشقيق كذلك حيث وجدت في عفوية الأشقاء اليمنيين وصدقهم وظرفهم ودماثتهم صدى لما في نفسك من رقة وطيب، وكنت دائماً تستصحبهم ذكريات طيبة تسترجعها من خلال سماعك للأغنيات اليمنية في أسفارك البرية التي لا تكاد

تنتهي، أو ـ عفوك ـ التي انتهت بسفرك الأخير إلى دار الرشاد هرباً من عالمنا المجنون، بعد رقدة ستكون راحة لجسدك المنهك من سهادك الدنيوي، من عيشك للآخرين بدءاً بأسرتك الصغيرة التي رعيتها بحبك وكفاحك ومبادئك، وانتهاءِ بأسرتك الكبيرة الموزعة في أجزاء المعمورة تنتظر موعداً، تلتقي به بعد كل تلك السنين العجاف، ومروراً بالأسر المختلفة التي انتميت إليها، وكانت موضع عنايتك واهتمامك في كل مرفق، أو دائرة، أو مؤسسة أو رابطة شاركت فيها خلال سني حياتك التي كانت مليئة بالإصرار والتفاؤل مثلما كانت مفعمة بالحزن والفواجع.

نعم يا أبو عماد، انتظرت ما يقرب من نصف قرن موعداً مع «صفورية» بما فيها ومن فيها، وانتظار الحب لقيا فيما زعم السياب، وجعلت تعلل نفسك بأشياء كثيرة تطرد بها عن نفسك حتى النوم.

لكأنك تخاف أن يسرقك فيفوتك هذا الموعد، تشاغلت بكل شيء، بالدراسة، والتحصيل، بالعمل والتدريس والكتابة، بالخدمة العامة، بالسفر، بالأسرة والأصدقاء والزملاء، بذلت لهم نفسك مالاً ووقتاً وجهداً، (حتى وجدت نفسك تنخرط في العمل في رعاية الصم والبكم ومشغولاً بقضايا التنمية الفكرية للمعوقين). ولكن قلبك كان معلقاً بذاك «الموعد»، مع أنك تسعى لاستنفاذ شوقك إليه بشتّى السبل.

ولكن هيهات لهذا الحنين الصافي أن ينضب فيك. كان الشوق يبري جسدك، وكان الحب واللهفة من جانبك يجعلانك تبدو وكأنك تمدّ يداً نحو الآخرين تطلعاً إلى الذوبان فيهم، لكأنك كنت تبحث عن ذاتك فيهم، كنت تنتظر «الموعد»، اللقاء، وأخيراً ها قد حان، شاءه الضعف والتمزق والتفرق والتباغض والتحاسد والخور والتخاذل وقصور البصر، بل البصيرة، عن التمييز بين الشحم والورم، نعم جاء الموعد، ولكن المكان لم يعد «صفورية»، بل ولا حتى قرية أو مدينة مجاورة لها، بل عاصمة عربية قريبة شرعت أبوابها بعد اتفاقيات السلام، في زمن السلام، لوفود السائحين من كل حدبٍ وصوب، فيسّرت بذلك لبضعة من جسد آل الموعد أن تنتقل إليها، وتلتقي ببضعة أخرى منه هي أبو عماد الذي حدثنا حديث هذا اللقاء. وأيّ لقاء.

«وهكذا يا سادة يا كرام، وبعد ثمانية وأربعين عاماً، منذ أن خرجت من داري إلى موعدكم هذا، أتيح لي أخيراً أن ألتقي أبناء عمي الثلاثة، جاؤوا يتراكضون من الناصرة ليروا ابن عمهم في عاصمة عربية»...

"حين سمعت أصواتهم في الهاتف في بيت قريبي، تلهج بعبارة «يا ابن عمي»، لم أصدق، انقطعت أنفاسي، وكاد قلبي يتوقف عن الخفقان: اسمع يا ابن عمي سنكون بطرفكم غداً..."

"ولكم أن تتصوروا يا سادة يا كرام كيف استنقذت فجأة من شبه العدم، ثلاثة من أولاد عمي، كنا أطفالاً في القرية، نلعب في البساتين والبراري وعلى البيادر، وكان لأولاد عمي أسماء، ولا يزالون يحملونها، منذ ثمانية وأربعين عاماً، فهد، محمد، وأحمد.

حين وقعت الواقعة، واقتاتت أشواك دروب المنافي أقدامنا وقلوبنا، عادوا هم، مع والدهم، عمي من منتصف الطريق إلى القرية المحتلة، وأوغلوا في المنفى في وطنهم، ورفضوا لهم أن يكونوا حراس حقولهم وبيوتهم، حتى نعود، فأقاموا ينتظرون غير بعيد على أطراف الناصرة ولعلهم نسوا أو تناسوا، حين طال عليهم الأمد، أن لهم أولاد عم، لا يبعدون عنهم أكثر من مدى الصوت، ولكن قطاف النجوم أقرب إليهم من الوصول إلينا، فأرقدونا على أرفف النسيان، وأرقدناهم، بعد حين، في منطقة محايدة من قلوبنا.

حين جاءني الهاتف من بيت قريبي، إلى الندوة التربوية، ينبئني بوصولهم، دخلت في عالم مسحور، أو في حلم مستحيل، إذ أولاد عمي يشاركونني هواء هذه المدينة وشمسها وروائحها، وصرت أبعثر، وأنا في طريقي إليهم، صورهم لأعيد تشكيلها فلا أعثر إلا على صورة أطفال

بين الرابعة والتاسعة، في الحقول، وعلى الدروب الطويلة ذات المنحنيات، وفوق البيادر.

وحين حانت لحظة اللقاء انفصلت عن ذاتي وغدوت مراقباً، ودخل شخص، خرج مني ودخل في موجة بكاء لا تقاوم، هزّت الأعماق، ولا تريد أن تنحسر، وكان الذي انفصل عني يتساءل عن جدوى ذلك كله.

إن سعادتي بلقائهم كبيرة، وأنا أعانق فيهم طفلاً أثقلته ثمانية وأربعون عاماً من الأحلام والذكريات والدموع، والغريب أننا كنا نتحدث، وكأننا نتابع حديثاً بدأناه بالأمس.

وكنت أختزن كلمات ومواقف ومشاعر أحملها إليكم وأنا في طريقي إلى موعدكم هذا. ولكني، مع ذلك كله، سأعترف، لقد كان لقائي بهم، كذلك، شوكة في حلقي، ومرارة في لساني، فهم جاؤوا في زمن الهزائم والتراجعات، وجاؤوا بجواز سفر هجين.

سأعترف إذاً، أن هذا اللقاء كان ناقصاً، وليس هو اللقاء الذي انتظرته كل هاتيك السنين وينتظره أولادي، منذ أن أدركوا أن المخيم مكان إقامة عابرة ليس إلا، وليس اللقاء الذي حلم به أبي، وحلمت به أمي، وماتا قبل أن يتحقق لهما الحلم، وحلم به عمي...

... واقترب فهد، ابن عمي الأكبر، وهو يودعني... وبكينا، وتعانقنا، وشخص انفصل عني كان يراقبنا في حياد، وفجأة كحجر قذفته يد قوية في الموج العاتي فغاب، انقضت هاتيك الأيام الثلاثة، وانغلقت على أبناء عمي القضبان الحديدية، وابتلعهم، من جديد، الصمت المدوي، لقد خرجوا من السجن، وإلى السجون يعودون.

وهكذا يا سادة.. يا كرام، خرجت من بيتي على موعد معكم..."

نعم يا أبا عماد، خرجت في السادسة من عمرك، واحتفظت بموعدك مع «صفورية» وأهلها ثمانية وأربعين عاماً، ضللت الطريق، عثرت ونهضت وتشردت، وكبرت، وتزوجت، وأنجبت، وتزوج أولادك، وأنجبوا أحفاداً، يعيشون على انتظار الموعد.

أملت مرة، ويئست مرات، ولكنك كنت تتطلع دائماً إلى هذا «الموعد» وكان عيشك كله سهاداً، في ذلك المخيم الذي كان بالنسبة لك أشبه ما يكون بالأعراف، أو المطهر، وكانت حياتك انتظاراً متصلاً لفجر قادم تنطلق فيه عائداً إلى طفولة انتزعت منك، وقرية هدمت كلها فلم يبق منها حجر على حجر، وأسرة تفرقت، واحتجز بعض أفرادها خلف القضبان الحديدية في سجن واسع، كان وطناً جميلاً، وانقلب بعد ليلة رمضانية إلى جحيم مقيم.

ولكن العاصفة قادمة، فخيوطها تتناسج من كل حدب وصوب وآل الموعد سيلتقون ثانية في «صفورية» التي سيتشممون ترابها من جديد بالكفاح والإخلاص والثبات على الحق، وقريباً سيأتي نور الدين، وسيتلوه صلاح الدين، وعندها ربما ستستقر روحك المتوثبة القلقة في مستقر رحمته، ويرتاح جسدك في رقاده، وينبثق فجر حقيقي وعماد والمعتز وكنان وبقية آل الموعد يميزون -ومنذ نعومة الأظفار- بين ما هو حقيقي وما هو مزيف، وقد تبين الرشد من الغي، وأفصح الصبح لذي عينين، وتبينت الحقيقة لكل ذي بصيرة، وليس الصبح ببعيد.





جعفر دك الباب

(١٩٣٧-١٩٩٩م)



جعفر دك الباب اللساني المتبصر

أيتها السيدات، أيها السادة،

عندما نواجه حقيقة الموت، أو تواجهنا، نعلم تمام العلم أن فزعنا إلى الآمال، مجرد هراء، وأن كل ما نأتيه محض كذب، وأن الإحساس بالفقد يطغى على كل محاولة للتفكير في المسألة بشكل عقلاني منطقي، وأن الإيمان وحده هو ما يعصم، وأن السلوان الفعلي يكون بتذكر ما قدمه الفقيد في دار الأعمال هذه مما يرشحه، ويرشحنا ما دمنا نشترك في المسعى ذاته، لدار الرشاد، وينمي في أنفسنا الرجاء والأمل في أن نجتمع به هناك في مستقر رحمته.

الإحساس بالفجيعة والفقد لا يوصف أيها السادة، إنه مثل الإيمان، والألم، يحس، ويعاش، ويختبر، وعندما يود المرء أن يفصح عنه تراه لا يكاد يبين.

أذكر مرة، وكنا في معرض الحديث عن الأصدقاء ومكانتهم في النفس، أن صديقة، وكانت متخصصة في علم كيمياء الأحياء الدقيقة Microbiological Chemistry قالت إن أصدقائي هم إهابي، ولا يمكن أن أحيا دون إهاب، وقد تكون تلك بالنسبة للبعض مجرد حقيقة فيزيولوجية بيولوجية ولكنها بالنسبة لي حقيقة من حقائق حياتي أيضاً.

وقال صديق آخر إن الأصدقاء /الذين هم من طبقة الدكتور جعفر/ عندما تكون أخلاقهم زهراً غبّ سماء وروحهم قدس، هم مثل الهواء النقي الذي يملؤك حيوية ونشاطاً عندما يهب عليك، ويجعلك تحس بضيق الصدر والاختناق عندما تفتقده في فسحة ما.

وقال ثالث إن الحياة صعود في طريق جبلية وعرة ضيقة، وأن إمكانية الارتقاء فيها دون أن يدمى المرء في صعوده مرهونة بوجود وسائد ناعمة تقي الجسم، وربما أقول الروح، من نتوءات صخور الحياة الجارحة، وأن هذا الوسائد ليست غير الأصدقاء الذين يشتاقهم من جمالهم غدهم، ويكثر الوجد نحوهم الأمس.

نعم أيها السيدات وأيها السادة، الإحساس بالفقد عصيّ على اللغة، وقد كان الدكتور جعفر، فيما عرفناه عنه في جمعية النقد الأدبي، وفي الاتحاد

وفي الجامعة كالإهاب الذي تحس فيه بالأمان، والهواء النقي الذي يفعم نفوسنا بالحيوية والرجاء، والوسائد الناعمة التي نتقي بها نتوءات صخور الحياة في طريقنا الصاعدة المتسامية إلى آفاق جديدة. وإذا أحسسنا اليوم بأننا لن نكون على ما يرام دونه فنحن صادقون في الإفصاح عن بعض ما ينتابنا من خوف، بل فرق، ونحن نرى أولاء الذين نجمل بهم حياتنا يغيبون واحداً تلو الآخر، نودعهم، ونودع مع كل واحد منهم جزءاً من نفوسنا.

نعم أيها السادة لقد غيب الموت في السنة المنصرمة نايف بلّوز، وفهد عكام، وجودت الركابي، ومؤخراً مسعود بوبو، وقبله جعفر دك الباب الزميل الذي كنا نتدارس تكريمه في جمعية النقد في هذا العام، فكيف لنا أن نطوع اللغة على الإفصاح عن حس الفقد المتنامي في نفوسنا ونحن نراها تتشظى، وفي قلوبنا، ونحن نحس بها تتوزع فيما بينهم.

أيها السادة، ليس ثمة سبيل إلى تدبر إحساسنا بالفقد إلا بتذكر ما تركه لنا الفقيد من تراث يضم أكثر من عشرة كتب مؤلفة ومترجمة يعرفها طلابه وزملاؤه في جامعتي دمشق والجزائر وقراء العربية على امتداد الوطن العربي وخارجه ، وعدداً كبيراً من الأبحاث المنشورة في كبريات الدوريات العربية والأجنبية بالعربية والروسية والإنكليزية، تدبّر بها الراحل قضايا مختلفة في النقد الأدبي، والتراث العربي اللغوي والنقدي ولا سيما ما اتصل منه بإعجاز القرآن، فضلاً

عن عنايته الخاصة باللغة العربية وتاريخها والفلسفة العربية والرشدية منها على نحو خاص.

ولكن يبدو لي أن أهم ما خلفه لنا الدكتور جعفر هو مسعاه لإقامة نظرية نقدية عربية يصدر فيها عن فهم عميق متبصر باللسانيات العربية، ووعي غني بالمواريث اللسانية القومية الأخرى التي تيسرت له من خلال معرفته للغتين الروسية والإنكليزية.

لقد جمع لنا الدكتور جعفر خلاصة أنظاره الأحدث عهداً في كتابه "**النظرية اللغوية العربية الحديثة**" التي رغب بداية في تسميتها بالمدرسة اللغوية الدمشقية الحديثة، وربما كان ذلك لأن دمشق كانت في قلبه وهو يعد أبحاثه في أثناء سنوات عمله في جامعة الجزائر، وأرادها أن تكون نظرية عربية حديثة يفصح بها عن حبه لهذه اللغة وعن عميق انتمائه لأمته، ولعل من الوفاء له أن تدرس هذه النظرية وتتلمس سبل الإفادة منها في إقامة نظرية نقدية عربية حديثة تستند إلى المهاد اللساني الذي أراده. وربما تكون فاتحة هذه الدراسة ندوة تعقدها الجمعية لمناقشة الكتاب في الشهور المقبلة تحفز على إعادة النظر فيما تركه لنا الفقيد الدكتور جعفر الذي نضرع إلى الله عز وجل أن يتغمده برحمته، ويسكنه فسيح جناته، ويلهمنا وأهله الصبر والسلوان، ففقده خسارة وأية خسارة للعربية وأهلها، لأنهم خسروا فيه قلماً سطّر أنضج الثمار وأحلاها،

وفكراً نيراً، غالباً ما نفتقده في دارسي العربية من المعاصرين، وإخلاصاً وتفانياً عرفوهما فيه.







ممدوح خسارة

(١٩٤١-٢٠٢١م)



ممدوح خسارة وعنايته بالعربية الراهنة

لا يسع المتتبع لما ينشره الدكتور ممدوح خسارة في ***مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق*** وغيرها إلا أن يغبط الرجل على نشاطاته واهتماماته بحال العربية الحديثة والمعاصرة، ولا ريب أن مسعاه الراهن إلى إكمال بعض مواد المعجم العربي **مسعى نبيل ووجيه وله الكثير مما يُسوِّغه**، وهو كذلك بحاجة إلى شجاعة كبيرة لا تنقصه. فاللغة -أية لغة- إنما هي بالناطقين بها، وعنايتهم المستمرة بها هي ما يجعلها حيّة فاعلة في حياة الأمة، بوصفها أداة التفكير، والتعبير، والتواصل فيما بين أبنائها، ومع تراثها، وما دُوِّن بها من مواريث الأمم الأخرى.

وقد تيسّر لي الاطلاع على آخر ما خطه يراعه في بحثه (الثالث)[1] مما يتصل بمادة **علم** وغيرها، ونُشِر في الجزء الثالث من المجلد التسعين من ***مجلة مجمع اللغة العربية***، والذي يقترح فيه إضافة بضعة وعشرين مدخلاً يكمل به مادة "علم".

لقد وجد الدكتور خسارة أن "ثمة كلمات جديدة من أفعال وأسماء دخلت اللغة العربية المعاصرة وِفق أبنية عربية، ولكن بدلالات محدثة لم تكن لها عند القدماء، مثل فعل (اعتقل، انعدم، أزم، حاسوب). ونظراً لشيوعها، فإن الحاجة تدعو إلى دراسة كل منها على حدة، ولا سيما الأفعال، لمعرفة مدى صلوحها لدخول المعجم العربي، بعد أن دخلت ميدان الاستعمال اللغوي. وإذا كان بحثنا سينصب على الأفعال، فذلك لأن إقرارها يستتبع مشتقاتها من أسماء فاعلين ومفعولين وسائر الصفات" (ص ٥٨٣).

هذا وقد أحصى الدكتور خسارة، عند العودة إلى معجمين رأى فيهما مُمثِّلين للمعاجم العربية والحديثة، أولهما قديم هو "***تاج العروس***" للزبيدي، وثانيهما حديث هو "***المعجم الوسيط***" الذي صنعه **مجمع اللغة العربية** في

[1] انظر: د. ممدوح خسارة، "إكمال مادة لغوية (٣)"، ***مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق***، المجلد التسعون، الجزء الثالث، رمضان ١٤٣٨ هـ- تموز ٢٠١٧ م، ص ص ٥٨٣-٥٩٤.

القاهرة، نحواً من ستة وخمسين مدخلاً مأخوذاً من الجذر "علم". وتبين له مِن تَتَبُّعه للاستعمال اللغوي المعاصر أن "ثمة سبعة وعشرين مدخلاً تتضمن نحو ستين دلالة جديدة، منها ما هو جديد تماماً بناء ودلالة، مثل (عَوْلَم، والعَلْمَنة)، ومنها ما اكتسب دلالات إضافية على ما كانت له، مثل (الإعلام والمَعْلَم). واستناداً إلى ما تقدم فإنه يقترح سبعة وعشرين مدخلاً لإكمال مادة "علم".

ولدى مراجعة ما اقترح الدكتور خسارة إضافته على الجذر "علم" من مداخل وجدتُ أن من واجبي أن أشدّ على يده، عملاً بالآية الكريمة ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وأعزِّز مسعاه النبيل ببعض ما بدا لي من ملاحظات، يُمليها حبنا المشترك للعربية، وإن قصر باعي في خدمتها عن باعه:

أولها: أن من الضروري، عند إحصاء دلالات أي مادة لغوية، عدم الاكتفاءِ بالعودة إلى معاجم قديمة وحديثة محدودة أخذاً بصفتها التمثيلية، ذلك أن **لكل معجم قديم أو حديث إسهامه النوعي** الذي يُسوِّغ صنعه وإخراجه للناس. صحيح أن الدكتور خسارة يشير في حواشي بحثه إلى معجم ***لسان العرب*** لابن منظور، ***والتعريفات*** للجرجاني، ***وكشف الظنون*** لحاجي خليفة، ***ومفتاح العلوم*** للسكاكي، ***ومعجم اللغة العربية المعاصرة*** لأحمد عمر مختار،

والمعجم الكبير الذي يعدّه **مجمع اللغة العربية** في القاهرة، غير أن من الحكمة أن يستعين في تقصيه للاستعمالات الحديثة للمفردات بمعاجم حديثة من مثل ***متن اللغة*** لأحمد رضا، ***والمعجم العربي الأساسي*** الذي أصدرته **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** عام ١٩٨٩ في تونس، وغيرهما، وهي كثيرة، والعودة إليها ضرورية في تقصّي الدلالات الحديثة والمعاصرة للمفردات العربية، لأنها ستكون المرجعية المعتمدة في هذه الدلالات.

وثانيها: أن من الحكمة بمكان البحث عن مصدر كل مفردة جديدة وتبيُّن واقع صلة دلالتها بالحياة العربية الحديثة، خاصة وأن الكثير من المفردات المولّدة حديثاً هي من الاقتراض اللغوي بطريق الترجمة Loan-translation (calque). ومعنى هذا أنه لا بد من العودة إلى المعاجم ثنائية اللغة التي تم اقتراض هذه المفردات من لغتها الأجنبية الثانية، أي من الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية وغيرها. وبعبارة أخرى فإن من المهم الإشارة إلى الأصل الأجنبي للكلمة وإلى ما طرأ على دلالتها من تحولات إلى أن استقرّت في النظام اللغوي العربي بدلالتها المحددة. ويمكن أن يشير المرء هنا إلى بعض المعاجم المساعدة في هذا المجال من مثل ***قاموس أكسفورد الحديث لدارسي اللغة الإنكليزية*** ***Oxford Wordpower*** والذي عنيت به د. نجاح الشمعة، وصدر عن مطبعة جامعة أكسفورد عام ٢٠٠٠، والذي يشرح كل

مفردة بالإنكليزية أولاً، ثم يعقب عليها بمقابلها العربي، ***وقاموس أكسفورد: إنكليزي عربي** **Oxford English-Arabic Dictionary*** الضخم (يقع في ١٤٠٠ صفحة من القطع الكبير) الصادر عام ١٩٨١ عن الناشر نفسه بتحرير ن. س. دونياك N. S. Doniach؛ فضلاً على معجمي ***المورد*** لـ منير بعلبكي و***المغني*** لـ حسن الكرمي.

وكذلك فإن من المهم التنبيه في هذا المقام على أن **الاقتراض اللغوي عن طريق الترجمة ينبغي أن يكون مشفوعاً بالإحاطة بدلالات المفاهيم المترجمة ومصطلحاتها**[1]، فعلى سبيل المثال إن كلمة **العولمة**[2] ليست غير ترجمة

---

[1] انظر بغرض الاطلاع على المزيد في هذه المسألة:

عبد النبي اصطيف، "التأصيل وما أدراك ما التأصيل في الثقافة العربية الحديثة"، ***الأسبوع الأدبي***، العدد ١٢٨٣، السنة السادسة والعشرون، تاريخ ١١-٢-٢٠١٢، ص ٦.

[2] انظر بغرض الاطلاع على مفهوم **العولمة**:

Derek C. Maus, "Globalization", in: ***The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory***, 3 Volumes, General Editor Michael Ryan (Wiley-Blackwell, 2011), pp.1094-1098;

وكذلك مادة "Globalization":

Key Concepts in Cultural Theory, Second Edition, edited by Andrew Edgar and Peter Sedgwick (Routledge, London and New York, 2008), pp. 146-149.

حديثة للكلمتين الإنكليزية Globalization والفرنسية Mondialisation، وفي حين إن الكلمة الإنكليزية مشتقة من كلمة Globe أي الكرة الأرضية، (الأمر الذي دعا بعض العرب إلى ترجمة Globalization بالكوكبية) والكلمة الفرنسية مشتقة من Le monde أي العالَم، فإن كلتيهما تشير إلى منظور، يتزايد تأثيره في التفكير السياسي والاقتصادي والعسكري المعاصر، يسعى إلى تدبّر كل قضية من خلال النظر إليها من منظور شامل للعالَم الأرضي، أو الكرة الأرضية، متجاوزاً مختلف الحدود التي تتخلل هذا العالم، أو هذه الكرة.

وكذا الشأن في دلالة مصطلح **العَلمانية**[1] **Secularism** الذي يشير إلى نوع من التفكير الذي يُحيّد الدين عند النظر في شؤون الإنسان الحديث والمعاصر، دون أن يعني ذلك محاربتَه، أو محاربة المتدينين، وإنما فصل الدين عن الدولة التي ينبغي أن تقوم، فيما يراه أتباع العلمانية، على قاعدة من **القانون الوضعي** الإنساني، لأن الإنسان أعلم بما يمكن أن يقوم شأنه أو شؤونه

وكذلك:

Dr. Nayef R.F. Al-Rodhan and Ambassador Gérard Stoudmann, ***Definitions of Globalization: A Comprehensive Overview and a Proposed Definition,*** (Geneva Centre for Security Policy, Geneva, 2006).

[1] انظر: عزيز العظمة، ***العلمانية من منظور مختلف***، ط ٣، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨).

به. **ولا ريب أن إحاطة القارئ علماً بأصول الكلمتين ضرورة لازبة، لأن هذه الأصول تشكل المرجعية التي يُستند إليها في تحديد دلالتها، وهو ما غاب عن ذهن الدكتور خسارة.**

وثالثها: ضرورة التنبُّه إلى أن بعض المفردات الحديثة خاصة بعلوم وميادين معرفة محددة، ولذا فإن دلالاتها محكومة بأنظمة هذه العلوم والسياقات الإشارية الخاصة بها؛ فعلى سبيل المثال إن كلمة **علامة**[١] التي تقابل كلمة Sign هي المحور الأساسي لعلم العلامات Semiology الذي بشّر به فردينان دوسوسير Ferdinand de Saussure في كتابه ***مساق في علم اللغة العام Course de linguistique générale***، ومن ثَم فإن كل ما يتصل بها ينبغي تدبّره من منظور هذا العلم الذي ازدهر وتطوّر على مدى أكثر من قرن في أوربا وأمريكا وغيرهما. وكما يمكن أن يلاحظ القارئ المدقق فإن الدكتور خسارة لم يورد أساساً هذا المعنى، لأنه عوّل على ما بين يديه من مراجع محدودة.

وكذا الشأن في كلمة "استعلامات" فهي ليست غير ترجمة Calque للمفردة الإنكليزية والفرنسية Information، ولكن لها دلالات عديدة في هذه

---

[١] انظر بغرض الاطلاع على مفهوم **العلامة وموقعها** في **علم العلامات Semiology**:
"Semiotics/Semiology", "Sign", in: ***Key Concepts in Cultural Theory***, ibid, pp. ٣٠٦-309 and p. 311.

اللغات يميزها الاستعمال والسياق، فهي بمعنى **الإعلام** في **"وزارة الإعلام"** Ministry of Information، وهي بمعنى **المعلومات** في Information Technology، أي **تقانة المعلومات**، وكل ذلك إلى جانب ما أورده الدكتور خسارة في بحثه الذي أغفل مرجعيات هذه الدلالات، ومن ثَمَّ رأى أن ما ذهب إليه يشكِّل مرجعية كافية.

ورابعها: التنبُّه إلى أن الكثرة الكاثرة من هذه المفردات هي استعمالات في اللغة المحكية، وهي لذلك محكومة بالنظام اللغوي الذي يهيمن على الإنشاء الفردي العامي. مثل **التَّعليمَة**، التي أشار إليها الدكتور خسارة، والتي دخلت إلى العربية المحكيّة مع دخول الهاتف المحمول، أو الخلوي، أو النقال، سمّه ما شئت، ومن المهم في هذا المقام الدعوة إلى دراسة هذه المفردات، ومن ثم دمجها في المعجم العربي الحديث لتكون جزءاً من النظام اللغوي الخاص باللغة العربية الفصيحة.

وخامسها: التنبّه إلى أن كل مفردة من هذه المفردات لها تاريخ دخول محدد في اللغة العربية، وأن ثمة عوامل أملت دخولها في هذا التاريخ، أهمها حاجة الأمة إلى اللحاق بركب الأمم الأخرى في ميادين العلوم والمعارف والصناعات. صحيح أن العربية لا تزال حتى يومنا هذا تفتقر إلى معجم تاريخي، ولكن أخذ هذا العامل بالحسبان مهم في مناقشة دلالة أية مفردة،

ومادام الدكتور خسارة قد أخذ على عاتقه هذه المهمة الجليلة فإن عليه أن يشفع كل معنى جديد بتاريخ دخوله إلى العربية.

وسادسها: ضرورة الأخذ بالحسبان تلك المعاني التي يُكسِبها بعض فصحاء العربية لمفردات معينة نتيجة تأثرهم اللاواعي بلغة أجنبية يتقنونها (مفردة "يختلف" بمعنى "يتردد على" ترجمة لكلمة frequent الإنكليزية والفرنسية وتكثر في كتابات طه حسين). ومعنى هذا أن كتابات هؤلاء يمكن أن تكون مصدراً مهماً للكلمات الجديدة ذات المعاني الجديدة التي أدخلوها إلى اللغة العربية.

وأخيراً يرى صاحب هذه السطور، في معرض مراجعته لما أضافه الدكتور خسارة من دلالات للجذر **علم**، أن من الأفضل استعمال كلمة **"درجة"** (بدلاً من كلمة **علامة** التي يقترحها الدكتور خسارة) لأن كلمة "درجة" هي **المستعملة في السجلات الامتحانية في المؤسسات التعليمية المدرسية والجامعية السورية**. وكذلك فإن **"العلامة الموسيقية"**، على غير ما ذكره الدكتور خسارة الذي رأى فيها رمزاً "يدل على نوع الصوت ومستواه الموسيقي"، **تشير في الكتابات العربية المعاصرة إلى ما يعرف بـ "المستديرة والبيضاء والسوداء**

وذات السن إلخ" التي تحدد الزمن، أما طبقة الصوت Tone فتتحدّد بموقع العلامة على سُلّم القطعة الموسيقية مثل دو ري مي [1].

والله من وراء القصد.

[1] وانظر للمزيد عن التدوين الموسيقي:

Joseph Machlis, ***The Enjoyment of Music: An Introduction to Perceptive Listening***, Revised Edition (W. W. Norton & Company, New York, 1963), pp. 73-78.



مازن المبارك

(١٩٣٠م - ٠٠٠٠)


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مع مازن المبارك في محاضرته:

"مع التراث: منهج ونتائج"

مازن المبارك عضو **مجمع اللغة العربية** بدمشق، وعميد كلية الدراسات العربية والإسلامية في **مجمع الفتح الإسلامي** في **جامعة بلاد الشام**، وأستاذ العربية السابق، بل أستاذ الأساتيذ الأعلى، في **جامعة دمشق**، وفي غيرها من الجامعات العربية، وصاحب المؤلفات الصوى في لغة القرآن وما يتصل بها من قضايا ومسائل، قامة لا نظير لها في الثقافة العربية الحديثة في سورية، بل في الوطن العربي، بخبرته الطويلة بهذه اللغة، وإسهاماته المهمة في تدبُّر مختلف جوانبها، ومشاركاته العامة في الحديث عن مزاياها وخصائصها وشؤونها عامة.

وهو بحق الأستاذ المهيمن في قاعات درسه، والذي لا ينازِع سلطان معرفته الواسعة، وعلمه الغزير بموضوعِ درسه، أي سلطان؛ وهو المؤلِّف الذي يكتب

بلغة واضحة دقيقة ومكثفة؛ وهو المُحاضر الذي يأخذ بألباب جمهوره؛ وهو المُتحدِّث الذي لا يملّه جليسه. وكيف لامرئٍ مثلي عرفه تلميذاً، وقارئاً، ومتابعاً لمحاضراته المجمعية والعامة ولما يسهم به من أحاديث في وسائل التواصل العامة، أن يكون محايداً في الحديث عن الرجل، أو حتى في مناقشة أي ضرب من ضروب مشاركاته الفعالة في خدمة العربية، خاصة وأني عملت معه على مدى عام كامل في "**مشروع الأنموذج المقترح لخطة تدريس اللغة العربية وآدابها في الدرجة الجامعية الأولى في الوطن العربي**"[1]، الذي أعد بتكليف من **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم**، ونشر من جانب **مركز بحوث الدراسات العليا** بدمشق عام ١٩٨٦م، وأفدت من خبرته البحثية والعلمية فضلاً على خبرته الحياتية، وتعلمت الكثير من أخلاقه وأدبه، وزاملته بعد عودتي من الإيفاد في **قسم اللغة العربية وآدابها** في **جامعة دمشق، والمعهد العالي للفنون المسرحية**، ولاحقاً بعد عودته من الإمارات في **جامعة بلاد الشام**، والواقع أن تلمذتي عليه: تلمذة الحضور، وتلمذة السطور، وتلمذة المجاورة، التي امتدت نحواً من نصف قرن أو يزيد، لم تزدني إلا محبة له،

---

[1] انظر: د. مازن مبارك، د. حسام الخطيب، د. عبد النبي اصطيف، ***مشروع الأنموذج المقترح لخطة تدريس اللغة العربية وآدابها في الدرجة الجامعية الأولى في الوطن العربي***، (المركز العربي لبحوث التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٦).

وإكباراً لدوره في خدمة العربية، وتفهماً لما أخذ نفسه به من رسالة في النهوض بالأمة ولغتها.

محاضرته: "مع التراث: منهج ونتائج"

عندما تتحدث الخبرة، المشفوعة بالمعرفة، والمسكونة بالصدق، والمصوغة برائع البيان فإنها تقول الكثير. وهكذا كان حال محاضرة الأستاذ الدكتور مازن المبارك، التي حملت عنوان **"مع التراث: منهج ونتائج"**، والتي ألقاها في قاعة محاضرات **مجمع اللغة العربية** بدمشق في السابع والعشرين من شهر نيسان عام اثنين وعشرين وألفين. فقد كانت محاضرة غنية بكل شيء، ومع أن صاحبها قد تحدث ضِعفي ما خُصِّص له من وقت فإن جمهوره كان متلهفاً لسماع المزيد، يسعد به ويفيد منه، في جلسة كانت إمتاعاً ومؤانسة، مثل ليالي أبي حيان التوحيدي.

وربما كان من أهم ما دلَّلت عليه، وأقنعت به كل محب للعربية -لغة الذكر الحكيم- من المجمعيين والجامعيين مجموعة أمور، أبرزها:

١. أن الكلمات في العُرف العام قد تكون مترادفة، غير أن "الصانع الماهر لا يُغفِل الفروق الدلالية الدقيقة بين ما يُسمى المترادفات. وهذه

الدقة في الفروق بين معاني المترادفات ليست مما يتطلبه التعبير العلمي الدقيق في التمييز بين مصطلحاته العلمية فحسب، ولكنه مما يتطلبه التعبير اللغوي، سواء أكان علمًا من العلوم أم فنًا من فنون الأدب" (ص١). والواقع أن علوم اللسان الحديثة والمعاصرة لم تقرّ بوجود المترادفات إلا في حدود ضيقة جدا، وذلك عندما تستعمل تسميتان أو أكثر للإشارة إلى المسمى نفسه في أماكن متباعدة، والأستاذ المبارك محق في التنبيه على الفروق الدلالية الدقيقة بين المفردات لتبديد وهم كثرة المترادفات في اللغة العربية.

٢. أن على المؤلف، والكاتب عامة، إلباس معانيه ما يناسبها من الألفاظ، وهو أمر لا تكفي فيه الفطرة السليمة التي تُكتسب بكثرة المطالعة لأمهات كتب التراث، ومخالطة فصحاء العربية، بل لا بد من شفع السليقة السليمة بالسعي للتزود بثروة لغوية واسعة، "لتستطيع الفطرة أن تختار من الألفاظ ما يناسبها من المعاني" (ص ٢).

٣. أن المتن اللغوي العربي أوسع من أن تحتويه المعاجم العربية القديمة والوسيطة والحديثة، وأن على دارس هذا المتن ألا يقتصر، في تتبعه له، على هذه المعاجم، بل عليه أن يلتمسه كذلك في كتب الأدب واللغة، ولا سيما المؤلَّفة قبل هذه المعاجم؛ "فالمعجم وحده لا يكفي

لشرح ما نريد شرحه من نصوص التراث"، و"المعجم العربي لم يحو لغة العرب كلها أولًا، وإن للعرب أساليب في التعبير تجاوزت حدود المعاني الضيقة للمفردات، مما جعل شرّاح الشعر ومحققي الدواوين يختلفون في شروحهم أو يضلون في بعض ما يذهبون إليه". (ص ٥).

٤. وأن على المتتبع الذي يأخذ نفسه بهذه النصيحة القيمة ألا يكتفي، في مراجعته لهذه المعاجم ولتلك الكتب، بالفهارس والمؤشرات التي قد لا تتخلَّل مادتها، بل أن يقرأ الكتب من الغلاف إلى الغلاف، إذ قد يأتي الحديث فيها عن موضوع ما، أو مسألة ما، أو فكرة ما، منجَّماً، موزَّعاً على أكثر من فصل، أو موضع. فالمؤلفون القدامى، ولا سيما صنّاع المعاجم، ربما يتركون أو يسهون عن ذكر أمر في موضعه، ثم يذكرونه في غير موضعه عندما يتذكرون ذلك. ومعنى هذا أن الباحث عنه قد لا يجده في مظنة وجوده، ومعنى هذا كذلك أن عليه أن يقرأ الكتاب أو المعجم كاملاً، من الغلاف إلى الغلاف، حتى يستوفي غرضه من بحثه عن هذا الأمر.

٥. وأن "الفصيح عند العلماء هو الذي أفصح عن المعنى أولاً، وجاءِ على القياس ثانياً، لا ما كثُر استعماله". ذلك أن الفصيح ما خلا من اللحن ومن الشذوذ، وإذا ما وصفوا كلمة بكثرة الاستعمال فالمراد

عندهم كثرة استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لا كلّ المتكلمين كما يفهم بعض الناس اليوم". "فحقائق العلم واللغة ليست كديموقراطية الانتخابات تتساوى فيها أصوات العلماء وأصوات العامة". (ص ٤).

٦. وكذلك فإن عليه ألا يقصد السواقي في تتبعه لهذا المتن، بل يوطِّن نفسه على العودة إلى الينابيع، فلا يلجأ إلى المراجع يأخذ عنها، ويحيل قارئه على مصادرها، موهِماً القارئ بصدق إشاراته ودقتها. إذ لابد من العودة إلى المصادر في طبعاتها المحققة والعالية، ولا يشفع للباحث ذكره أنه إنما ينقل عن مرجع موثوق، ليعفي نفسه من المساءلة، ويمنح قارئه الثقة بما يضعه بين يديه من أفكار.

٧. وأن يجعل همه بلوغ الحقيقة، وأن يسعى إلى إضافة الجديد في ميدان اهتمامه، وفي موضوع بحثه، وليس مجرد التكرار وقول المعاد؛ وبهذا يكون البحث العلمي تنقيباً يهدف إلى العثور على لُقى قيّمة ترقى للعرض في متاحف العلم والمعرفة. والناظر إلى الرسائل الجامعية، التي تجيزها الجامعات العربية في الزمن الراهن، إذ لا تستهدف الوصول إلى الحقيقة، فإنها، من ثَمَّ، لا تضيف جديداً إلى حقل تخصصها، وهي لا تتجاوز دائرة المعاد- المكرور.

والجميل في التدليل على هذه الأمور أن الدكتور المبارك قدّمها من خلال عرضه الشائق الشائك لتجاربه وخبراته العملية في تدبر شؤون اللغة العربية على مدى ما يقرب من ستة عقود. والأجمل أنه عرضها، مشفوعةً بالأمثلة الدالة والموثقة، **ببيان سهل واضح سام يجمع بين المتعة والفائدة**، ملتزماً بما أوصى به صاحب كتاب ***فن الشعر***، الناقد-الشاعر الروماني هوراس.





محمود السيد

(١٩٣٩م - ٠٠٠٠)


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

واسأل من كان به خبيراً:

الدكتور محمود السيد وتعليم اللغة العربية

كثيراً ما يواجه المعنيون باللغة العربية في الوطن العربي عامة، والقطر العربي السوري خاصة، بسؤال ملفّع بشيء غير يسير من الاحتجاج المبطن: هل اللغة مهمة إلى هذه الدرجة؟ أما آن لها أن تترجل من على صهوة حياتنا لتدعنا وشأننا نمضي إلى ما خُلقنا له من شؤون أكثر جدية من هذه الصغائر المتصلة بنحوها وصرفها وأصواتها ومعانيها ودلالاتها؟

لماذا تصرّ، ويصرّ كل من نصّب نفسه قيّماً عليها، وعلينا، أن تظل هاجساً يؤرقنا حتى إنه يمكن أن يهدّد مستقبلنا؟[1] خاصة وأن اللغة ليست، في نظر

[1] النجاح في مقرر اللغة العربية شرط لازب في القطر العربي السوري للحصول على شهادة التعليم الأساسي، والشهادة الثانوية بمختلف فروعها.

من يوجهون هذا السؤال، غير مجرد وعاء لما يعتمل في نفوسنا من أفكار وميول ومشاعر وخواطر؟ وهل نشرب إلا الماء؟ وهل نحتسي إلا القهوة؟ وهل ننتشي إلا بما يحتويه الكأس؟. فلم إذن كل هذا اللغو عن ضبط نطقنا لأصوات اللغة، وإخراج حروفها من مخارجها الصحيحة، والالتزام بصيغها الصرفية، ومراعاة قواعد بناء جملها، والتدقيق في دلالات مختلف مكوناتها، ومراعاة السياق في إنشاء خطاباتنا، وفي تفسيرنا لخطابات الآخرين؟. بل إن كثيرين، ممن قطعوا أشواطاً مهمة في حقول تخصصاتهم، يتذرعون بأنهم أطباء أو مهندسون أو مؤرخون أو مختصون بالحاسب أو الاقتصاد أو التجارة أو العلوم، وأن اختصاصهم يحول بينهم وبين إتقان لغتهم الأم، بل إنهم يرون ذلك أمراً منطقياً، إذ يبدو لهم الجمع بين إتقان الاختصاص وإتقان لغتهم كتابة وقراءة وحديثاً ومحاضرة ضرباً من ضروب المستحيل.

والحقيقة أن مسألة إتقان اللغة الأم ضرورة حيوية لارتباطها الوثيق بحرية الإنسان في التعبير، ولكونها أداة لا غنى عنها للمرء في تواصله مع الآخرين من الناطقين بلغته الأم ومع نصوص تراثه القومي، والمواريث المدوّنة بها، ولكونها -وهذا أخطر ما فيها- أداة للتفكير، فنحن نفكر باللغة التي نعرف، ودونها يصبح التفكير، حتى في أبسط الأمور مستحيلاً. بل إن قدرة المرء على التعبير والتواصل مع الآخرين مرهونة بقدرته على التفكير، ومن ثم تمكنه من

أدوات التفكير هذه. وكثيراً ما نجيل أفكاراً معينة في أذهاننا، ونحس أنها تكاد أن تكون في متناولنا، ولكنها تظل غائمة بعيدة عنا إلى أن نتمكن من أسرها بلغة ما نعرفها، نتقن استعمالها وتوظيفها في مختلف شؤون حياتنا. ولو أن أيّاً منا حاول أن يفكر ويعبّر ويتواصل مع الآخرين بلغة أخرى غير لغته الأم لكانت قدرته على التفكير والتعبير والتواصل مع الآخرين معادلة تماماً لدرجة تمكنه من تلك اللغة.

ولعل تذكير القارئ بحيّ بن يقظان ولقائه الأول بأبسال، الزائر القادم إلى جزيرته النائية، مفيد في هذا المقام، فعلى الرغم من خبرة حيّ بن يقظان الواسعة بأصوات الحيوانات التي ترعرع في صحبتها في تلك الجزيرة، وعلى الرغم من أن أبسال قد «تعلم أكثر الألسن ومهر فيها»، فإن التواصل بينهما كان مستحيلاً، مما أدى إلى هيمنة الفرَق الشديد على أبسال والتعجب والحيرة على حيّ بن يقظان إلى أن شرع أبسال في تعليمه الكلام أولاً بأول:

«كان يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرّر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق بها مقترناً بالإشـارة حتى علّمه الأسماء كلها ودرّجه قليلاً قليلاً حتى تكلم في أقرب مدة»[1].

وبعبارة أخرى، لقد اقتضى اجتماعُ أبسال وحيّ بن يقظان تمكّنَ كل منهما من لغة مشتركة يستطيعان من خلالها العيش المشترك في تلك الجزيرة النائية والتفاهم والتواصل وتبادل الأحاديث والأفكار، لأن اللغة في نهاية المطاف مؤسسة اجتماعية.

و إذا كانت اللغة الطبيعية Natural Language أداة للتفكير والتعبير والتواصل مع الآخرين والموروث القومي المدون بها، ومواريث الآخرين المنقولة إليها، فإن إتقانها مهم غاية الأهمية، بل هو شرط لازب للحياة الإنسانية السوية والمعافاة والسليمة. ولما كان العلم بالتعلّم، و«العلم في الصغر -كما يمضي المثل- كالنقش في الحجر»، فإن العمل على إتقان اللغة الأم ينبغي أن يبدأ في مرحلة مبكرة من عمر الإنسان، وينبغي أن تشترك فيه الأسرة والمدرسة والمجتمع بوصفها أهم الفسح الفعلية التي يمارس فيها الإنسان مهاراته

---

[1] انظر: **حيّ بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي**، تحقيق وتعليق أحمد أمين، الطبعة الثالثة (دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٦)، ص ١١٧.

اللغوية، مثلما ينبغي أن يكون عملية منظمة مدروسة تستند إلى وعي كاف بآليات تعلّم اللغة واكتساب مهاراتها المختلفة التي لا يستغني عنها المرء في حياته.

والحقيقة أن أهمية هذه العملية، بل خطورتها على مختلف المستويات: الفردية والاجتماعية والوطنية والقومية، هي ما حدا بالهيئة العامة السورية للكتاب إلى أن تقترح على الأستاذ الدكتور محمود السيدّ أن يؤلف كتاباً جامعاً مانعاً ميسّراً للقارئ العام يكون دليلاً مفيداً لكل أسرة في المجتمعات العربية في إكسابها اللغة الأم لأطفالها، وفي متابعة عملية الإكساب هذه في المدرسة والمجتمع. وكان الحافز على ذلك الخبرة النوعية التي يمتلكها هذا العلَم من أعلام الأمة في هذا الموضوع الجليل الشأن، «ولا ينبئك مثل خبير». فقد كان الدكتور السيد المرجع الثقة في طرائق تعليم اللغة العربية للناطقين بها على مدى أكثر من أربعة عقود، ليس في القطر العربي السوري وحده بل في الوطن العربي أيضاً، وقد تتلمذ على يديه وعلى كتبه العديدة أجيال وأجيال من مدرسي اللغة العربية ومحبيها.

وفضلاً عن خبرته النوعية هذه، ثمة خبرته بالعربية وتراثها، ولا سيما تراثها الشعري الذي يرويه من أي الشدقين شاء، وخبرته التربوية، وإحساسه السامي بدوره العام الذي عليه أن يؤديه تجاه مجتمعه ووطنه وأمته، بل برسالته الإنسانية

في الحياة مما ظفر بالتقدير والاحترام المتمثلين بمختلف المناصب العلمية التي تبوأها (عميداً لكلية التربية، ومديراً لقطاع التربية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية "ألكسو"، وخبيراً تربوياً في عدة دول عربية، وفي مكتب اليونيسكو الإقليمي للتربية في الوطن العربي، وفي منظمة اليونيسيف، وبرنامج الاتحاد الأوربي لإعداد المعلمين في الأردن، وأميناً عاماً مساعداً للشبكة العربية لتطوير أعضاء الهيئة التدريسية في جامعات الوطن العربي) إلى جانب عضويته في مجمعي اللغة العربية في دمشق والقاهرة، ورئاسته تحرير مجلة التعريب التي يصدرها المركز العربي للتعريب والتأليف والترجمة والنشر، ورئاسته مؤخراً لجنة التمكين للغة العربية، ناهيك عن تسنّمه وزارتي التربية والثقافة في القطر العربي السوري بعد عودته من عمله في ألكسو.

والهيئة العامة السورية للكتاب إذ تشكر الأستاذ الدكتور محمود السيد على تلبية دعوتها إلى تأليف الكتاب، الذي تودّ أن تقدمه مع دار البعث هدية إلى كل أسرة عربية، لترى في تلبيته هذه الدعوة تشجيعاً مباركاً لها على أداء رسالتها، ودعوة غير مباشرة لكل من يشاركها الإيمان بهذه الرسالة إلى مساندتها بما يستطيعه أو يملكه من إمكانات وتعزيز دورها الحيوي في نشر الكتاب الذي يرتقي بالمعرفة والوعي اللذين يحتاجهما القطر العربي السوري أيما حاجة

في عملية التطوير والتحديث التي يقودها رئيس الجمهورية العربية السورية الدكتور بشار الأسد حفظه الله.

والله من وراء القصد

فيحاء الشام، ربيع ٢٠٠٨م


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



محمود الربداوي

(١٩٣٢م-٠٠٠٠)



كلمة الأستاذ الدكتور عبد النبي اصطيف

في

حفل تكريم الأستاذ الدكتور محمود الربداوي

أيتها السيدات، أيها السادة،

مكرمنا أبو معتز، الأستاذ الدكتور محمود الربداوي، هو بالنسبة إلينا الأستاذ والزميل والصديق والأب والأخ، هو هؤلاء كلهم، اجتمعوا، ويجتمعون فيه، لأنه أراد باستمرار أن يكون في المركز من حياة أهله ووطنه وأمته:

- أستاذاً في جامعات سورية والوطن العربي؛
- وزميلاً لأجيال عديدة من أساتذة الجامعات السورية والعربية؛
- وصديقاً صدوقاً لمن أكرمه الله بصحبته؛

- وأباً لطلابه الذين تجاوزوا حدود العمر/ الزمان، والوطن/ المكان يرعاهم ما وسعه الوقت والجهد ويقدم لهم زبدة خبرته في الحياة؛
- وأخاً لكل من شاركه في عمل أو مهمة أو اجتماع يقدم إسهامه فيها ملفعاً بالمحبة والاحترام، فيصغى إليه بالسمع والقلب إصغاء إنسان أبي تمام صاحب أبي معتز الذي خصّه بكتابين ضخمين درس في أولهما الحركة النقدية التي تدبرت شعره على مدى العصور، وانصرف في ثانيهما إلى تدبر مذهب الصنعة في شعره.

والحقيقة أن أبا معتز كان بالنسبة لي كل ما قدّمت، كان الأستاذ والزميل والصديق والأب والأخ على مدى ما يقرب من أربعة عقود. فقد التقيته بادئ ذي بدء أستاذاً في خاتمة الستينات يدرسنا البلاغة (بيانَها وبديعَها) في **قسم اللغة العربية وآدابها**، يُعَلِّم بالمقال والحال معاً أن من البيان لسحراً، والتقيته بعد ذلك زميلاً عندما عدت من الإيفاد من إنكلترا لا يبخل علي بالنصيحة والتوجيه والإرشاد حرصاً منه على أدائي لعملي في القسم أحسن أداء، والتقيته بعدما يقرب من عقد في جامعة الملك سعود في الرياض، التي كانت رياضاً بما أكرمني الله فيها من صحبة كريمة لا نظير لها ضمت لفيفاً من الأقطار

العربية الشقيقة ونخبة من السوريين الكرام أذكر من بينهم الأستاذ عاصم بيطار -رحمه الله- وأسرته الكريمة، والأستاذ الدكتور مفيد العابد، والأستاذ الدكتور نذير العظمة، والأستاذ الدكتور محي الدين دمشقية، والأستاذ الدكتور الربداوي، كنا نجتمع مرتين في الشهر اجتماع إخوان الصفا الذين يحبون، وقد زينهم الله برجاحة العقل وكرم النفس وسمو الروح ونبيل السلوك، على التصافي، في حين بات حب الناس في هذه الأيام على الوَسام.

والتقيته عندما عاد إلى دمشق، بعد غيبة امتدت بضعة عشر عاماً، في **قسم اللغة العربية وآدابها**، يشركنا في الكثير من نشاطاته ويتحمل بعض أعبائنا في الإشراف ومناقشة الرسائل والمشاركة في المؤتمرات، وفي **اتحاد الكتاب العرب** يرأس تحرير مجلة **التراث العربي** ويرتقي بها إلى مصاف المجلات البحثية المرموقة في الوطن العربي.

وأكرمني الله به بعد كل ذلك مستشاراً ناصحاً **للهيئة العامة السورية للكتاب** يقدم حصيلة خبرته، فضلاً عن وقته الثمين وأدبه الجم وعلمه الغزير، ويكون خير عون في عملية تأسيس الهيئة على قاعدة من التمسك بالجودة والإتقان والدقة والموضوعية والقيم والمثل والمبادئ السامية – على قاعدة من التقوى والورع والأمانة في أداء رسالة خدمة العلم والمعرفة من خلال تقديم

الكتاب اللائق بماضي الأمة، والمستجيب لمشكلات حاضرها، والمسهم في بناء مستقبلها.

نعم يا أستاذي، وزميلي، وصديقي، ووالدي، وأخي، الذي كنتَ نِعْمَ ما شددت، وأشد به، أزري على مدى العقود الأربعة التي أرجو أن تمتد بكم وبي لنمضي في خدمة أهلنا ووطننا وأمتنا.

نعم أيها الحبيب، القريب من النفس والروح والقلب والعقل، لقد فاضت نفسي بهذه الكليمات التي أردتها عرفاناً مني بأياديك البيضاء عليّ، ومثلي كثر.

وإذا ما أردت أن أشفعها بخاتمة، أنتَ مِسكُها، فهي الدعاء لك بطول العمر وامتداد العطاء:

مد الله لنا بعمرك يا أبا معتز، ومتعنا بعطائك ومحبتك،

ومتعك بمن تحب وبما تحب، وأبقاك زينة لأيامنا،

والأيام لا تزدان إلا بالرجال الكرام.


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

محتوى الكتاب





التعريف بالمؤلف

عبد النبي اصطيف

سيرة موجزة

أستاذ جامعي، وباحث، وناقد مقارن، وكاتب مقالات وزوايا في الصحف اليومية، ومترجم، ولد في دمشق عام ١٩٥٢، وتخرج في **دار المعلمين العامة** عام ١٩٧٠، ونال إجازة في اللغة العربية وآدابها من **جامعة دمشق** عام ١٩٧٣، ودبلوم الدراسات الأدبية العليا من الجامعة نفسها عام ١٩٧٤؛ ودكتوراه فلسفة في النقد المقارن (العربي- الأوربي) عام ١٩٨٣، من **جامعة أكسفورد**.

درّس في **جامعة دمشق** منذ عام ١٩٧٥- معيداً، فمدرساً، فأستاذاً مساعداً، فأستاذاً للأدب المقارن والنقد الحديث منذ ١٩٩٤. تسلم مرتين منصب وكالة كلية الآداب والعلوم الإنسانية للشؤون العلمية ورئاسة قسم اللغة العربية وآدابها، وتولى تأسيس **الهيئة العامة السورية للكتاب** بين عامي ٢٠٠٦-٢٠٠٨م وكان أول مدير عام لها، وهو الآن أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث والترجمة في **جامعة دمشق**، وأستاذ الأدب المقارن الزائر في **جامعة بلاد الشام** (معهد الشام العالي سابقاً). كما درّس في عدد من الجامعات العربية

والإنكليزية والأمريكية والأوربية والأسترالية، وعمل خبيراً مشاركاً في قسم الآداب واللغات في **الموسوعة العربية** بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٤.

فاز في عام ١٩٨٣ بجائزة **أحسن مقالة عن العلاقات العربية-الأوربية** من **"الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط"**، وبـ منحة **أستاذ فولبرايت الزائر** للأدب المقارن (١٩٩٤-١٩٩٥)، ومنحة **أستاذ فولبرايت الزائر الاختصاصي** (٢٠٠٦) من مؤسسة فولبرايت، كما فاز في عامي ١٩٩٦- ١٩٩٧ بزمالة بحث وتدريس من **"مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية"، وكلية سانت أنتوني، جامعة أكسفورد**، ومنحة **باحث زائر** من **جامعة ديكين** في ميلبورن، أسترالية (٢٠٠١)، **ومنحة تمبوس** من الاتحاد الأوربي، أمضاها في **مدرسة المترجمين الدوليين في جامعة مونص** في بلجيكا (أيلول- تشرين الثاني ٢٠٠٣)، بوصفه عضواً في الفريق المؤسس للمعهد العالي للترجمة **والترجمة** الفورية في جامعة دمشق، ومنحة الباحث الزائر من **الأكاديمية البريطانية** عام ٢٠١١، بحث فيها "الرواية العربية الأنكلوفونية في بريطانيا".

نشر الدكتور اصطيف أكثر من ١٠٠٠ بحث ومقالة بالعربية والإنكليزية في أكثر من ١٥٠ دورية في سورية والوطن العربي وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وشارك في تأليف ثمانية عشر كتاباً بالعربية والإنكليزية. من أبرز مؤلفاته: ***في العولمة النقدية*** (٢٠٢٢)، ***صورة النبي محمد (ص) في الكتابات***

الأنكلو-أمريكية (٢٠٠٨)، ***من الأندلس إلى أمريكا: الموشحات الأندلسية وأثرها في الشعر الغنائي الغربي*** (٢٠٠٧)، ***العرب والأدب المقارن*** (٢٠٠٧)، ***سورية: مملكة الكتابة العريقة*** (بالعربية والإنكليزية) (٢٠٠٤)، ***نقد ثقافي أم نقد أدبي؟*** (بالاشتراك مع د. عبد الله الغذامي)، (٢٠٠٤)، ***في النقد الأدبي العربي الحديث***، جزءان، (ط٣ ٢٠٠٥م)، ***نحو استشراق جديد***، بالإنكليزية، قيد النشر (٢٠٢٤م). كما أسهم في تحرير والإشراف على مشروع ***الحركة الأدبية في بلاد الشام: المجلد الأول تاريخ، والمجلد الثاني مختارات*** (٢٠٠٨م)؛ فضلاً عن إسهاماته في "***الموسوعة العربية***"، و"***موسوعة الأدب العربي***" بالإنكليزية.



وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



من مقدمة الكتاب

تضم البحوث، والمقالات، والمحاضرات، وكلمات التأبين، التي يشتمل عليها هذا الكتاب، ضوءاً من جميل الذكرى المتصلة بموضوعاتها، وهم "رجال صدقوا ما عاهدوا الوطن عليه"، وجلّهم قضوا مغادرين عالَمنا بعد فيض عطاء، وبعضهم لا يزال يرفد حياتنا بما يقيم أودها من سامي القيم، وجليل الفضائل، والقدوات الأمثولة. وهذا الضوع مصدره ما قدموه من جانب، وما خلفوه من طيب الذكرى من جانب آخر، خطّه قلم صاحب هذه السطور في مناسبات مختلفة، احتفاء برجال كانوا الأسوة الحسنة في حياته: **أساتذة تتلمذ عليهم، وزملاء أغنوا نشاطاته البحثية والعلمية بما قدموه من عون وتشجيع، وأصدقاء كانوا بمنزلة شق النفس، تتلمذ عليهم، بالحال والمقال،** وأغنوا عليه حياته إلهاماً وعملاً أبقياه على قيد الحياة الحقيقية، المرهونة بالبذل والعطاء لمن نحب وطناً وأهلاً.

قسطنطين زريق عفيف بهنسي عمر موسى باشا ممدوح خسارة

عبد الهادي هاشم ليلى الصباغ فهد عكام مازن المبارك

إحسان عباس جودة الركابي محمود موعد محمود السيد

شكري فيصل محمد إحسان النص جعفر دك الباب محمود الربداوي

عبد الكريم الأشتر حسام الدين الخطيب